

كتاب الأباء

عباس محمد العقاد

طبعة جديدة منقحة



اسم الكتاب: عبقرية الإمام.
المؤلف: عباس محمود العقاد.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الثامنة - أكتوبر 2006م.
رقم الإيداع: 2003 / 10053
الرقم الدولي: ISBN 977-14-2298-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 02(3466434) - 02(3472864) فاكس: 02(3462576) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmistr.com

المطباع: 89 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 02(8330289) - 02(8330287) فاكس: 02(8330296)
البريد الإلكتروني للمطباع: Press@nahdetmistr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 02(5903395) - 02(5909827) فاكس: 02(5903395)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لادارة البيع: Sales@nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 03(5462090)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 050(2259675)

موقع الشركة على الانترنت: www.nahdetmistr.com
موقع البيع على الانترنت: www.enahda.com

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتقنن بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

تقديم

فى كل ناحية من نواحى النفوس الإنسانية ملتقي بسيرة على بن أبي طالب رضوان الله عليه..

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البلigh من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

فى سيرة ابن أبي طالب ملتقي بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار. لأنه الشهيد أبو الشهداء، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتابع من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جلهم وقار الشيب ثم جلهم السيف الذى لا يرحم، أو فتيانا عولجوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم وبين متع الحياة، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء، وهم على حياض المنية جياع ظماء.. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبح ظواهر الكون بصفتهم وصيغة دمائهم، حتى قال شاعر فيلسوف كأبى العلاء لا يظن به التشيع، بل ظلت بإسلامه الظنون:

وعلى الأفق من دماء الشهيد ين على ونجله شاهدان
فهم فى أواخر الليل فجرا ن، وفى أولياته شفقان

وهذه غاية من امتناع العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها فى سير الشهداء غاية، وكثيراً ما تتغطى إليها سائر الأمم فى قصص الفداء التى عمرت بها تواريخ الأديان..

وفى سيرة ابن أبي طالب ملتقي بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى الأجراء أو تغوص فى الأغوار. فهو الشجاع الذى نزعه الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، واشترك فى تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب.. ألم يحارب المردة فى فلواتها؟.. ألم يخلق له الرواية أندادا من

المناجزين والمباززين لم يخلقهم الله؟.. ألم يستصغر عليه المحبون الغالون في الحب أن يصرع من عرمنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه؟.. ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعا وفتكاته أن يلحوه بأبطال الأساطير وهو هو أصدق الأبطال في أصدق مجال.

وتلتقي سيرته . عليه رضوان الله . بالفكر كما تلتقي بالخيال والعاطفة: لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية، وأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمية بين حكماء العصور، وأنه أوتى من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين، فهو الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه في نتيجة العمل وجري الأمور.

وللذوق الأدبي - أو الذوق الفنى - ملتقي بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة: لأنه رضوان الله عليه كان أديباً بلغاً له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وإن تطاولت بيته وبينهم السنون. فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشئ الذي يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين..

وللنفس الإنسانية نواحٍها الكثيرة غير نواحٍ العطف والتخيل والتفكير، وتذوق الحسن الجميل من التعبير.

فمن نواحٍها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط في زمان من الأزمان، وهي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشبة أبداً على رأي من الآراء، أو حق من الحقوق، أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكن الذي لم يفتر قط ولا نحاله يفتر في حين من الأحيان خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين.

وإنها هنا للمجال الرغيب والملتقى القريب في سيرة هذا الإمام الأوحد التي لاتشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال:

«ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبى، ويبغضنى أقوام حتى يدخلوا النار في بغضى».. أو حين قال: «يهلك فى رجلان: محب مفرط بما ليس فى وبغض يحمله شتآنى على أن يبهتني».

وصدق الإمام الكرييم فى غلو الطرفين من محببىه ومن مبغضيه، فقد بلغ من حب بعضهم إيه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغ من كراهة بعضهم إيه أن حكموا عليه بالمروق من الدين: هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطاعونه.. ويستتببهم فيصررون على الكفر أى إصرار، ويأمر بإحراقهم فيقولون لهم يساقون إلى الحفيرة الموقدة: إنه الله وإنه هو الذى يعذب بالنار!..

وهناك الخارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه.. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب..

ميدان من ميادين الملاحة لم يتسع قط ميدان متسعه في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء: يقول أنس: إله.. ويقول أنس: كافر مطرود من رحمة الله!..

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلقيها سيرة الإمام في أكثر من طريق: وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح..

فقد أصبح اسم على علمًا يلتف به كل مغصوب، وصيحة ينادي بها كل طالب إنصاف، وقامت باسمه الدول بعد موته: لأنه لم تقم له دولة في حياته. وجعل الغاضبون على كل مجتمع باع، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المنفس الذي يستروح إليه كل مكظوم.. فمن نازع في رأى، ففي اسم على شفاء لنوازع نفسه، ومن ثار على ضيم ففي اسم على حافز لثورته ومرضاة لغضبه، ومن واجه التاريخ العربي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقي بينه وبين على في وجه من وجوهه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائعات تخلقها الطبيعة الأدبية إن قصر في خلقها التاريخ والمورخون.

وكل ملتقي من هذه الملتقىات يدع الكاتب فى حذر ما بعده من حذر؛ لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس، ولا ينقصها أو ينؤل بها إلى البساطة والوضوح، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت فى ناحية من النواحي سهل الخلوص إلى مقطع الحق فيها. فالبطل الذى يلتقي بالفكرة وحده أسهل من البطل الذى يلتقي بالفكرة والعاطفة، وإن هذا لأسهل من الذى يلتقي بالفكرة والعاطفة والخيال، وكل أولئك أسهل من يلتقي فى ألف سنة متواتلة بدخائل النفوس جميرا من طموح إلى المثل الأعلى، أو حرص على الملاحة، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى، مزيدا على التخييل والشعور والتفكير.

لهذا نعلم غير متربدين فى علمنا أن واجبنا فى «عقربية الإمام» مرسوم للغاية والطريق، وهو واجب التبسيط والقصد إلى الخطة الوسطى، وفي علمنا بهذا بعض التيسير، وإن لم يكن فيه كل التيسير، نرجع «عقربية الإمام» إلى الحقيقة الوسطى.

نرجع من عشرين طریقا إلى بداية واحدة؛ لأن الطريق الواحدة لا تؤدي إليها أقرب أداء.. وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق إلى تلك البداية المقصودة فعلی برکة الله..

عباس محمود العقاد

صفاته



المشهور عن على كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمى من أبوين هاشميين.. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقارب سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين، وهي في جملتها النبل والأيد الشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقارب في عدة من أولئك الأعلام.

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وقيل: إن اسمه الذي اختارته له أمه: حيدرة باسم أبيها أسد، والحيدرة هو الأسد.. ثم غيره أبوه فسماه عليا وبه عرف واشتهر بعد ذلك..

وكان على أصغر أبناء أبيه، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين.

قيل: إن عقيلاً كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه، فلما أصاب القحط قريشاً وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكتفوا أمرهم، فقال: دعوا عقيلاً وخذدا من شئتم. فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً وأخذ النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور. فعوضه إيثار النبي بالحب عن إيثار أبيه، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد فتعود لا يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباحه.

وربما صر من أوصاف على في طفولته أنه كان طفلاً مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة؛ لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبه لها على من كان في مثل هذه السن

المبكرة. فكانت له مزايا التبشير في النماء كما كانت له أعياوه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرین، ولا سيما المولودین منهم في شيخوخة الآباء..

ونشأ رضي الله عنه رجلاً مكين البنيان في الشباب والكهولة، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة: إنه كان رضي الله عنه ربعة أميل إلى القصر، آدم - أى أسمراً - شديد الأدمة، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلاً، ثقيل العينين في دفع وسعة، حسن الوجه واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش^(١) السبع الضارى لا يتبيّن عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً . وكان أبجر - أى كبير البطن - يميل إلى السمنة في غير إفراط، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، شتن الكفين، يتكتفاً في مشيته على نحو يقارب مشية النبي، ويقدم في الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوى على شيء.

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حاصل، ويمسك بذراع الرجل فكانه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، وانته عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرעה، ولم يبارز أحداً إلا قتلها، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلا رجال، ويحمل الباب الكبير يعيي بقلبه الأشداء، ويصبح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان.

ومن مكانة تركيبه رضي الله عنه أنه كان لا يبالي الحر والبرد، ولا يحفل الطوارئ الجوية في صيف ولا شتاء، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف، وسئل في ذلك فقال: «إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ بعث إلى وأنا أرمد العين يوم خبيث، فقلت: يا رسول الله: إني أرمد العين. فقال: اللهم أذهب عنه الحر والبرد، فما وجدت حر، ولا بردًا منذ يومئذ..».

* * *

(١) المشاش: رأس العظم.

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغا ما بلغت بهما القساوة والإيذاء. فقد كان يرعد للبرد إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه. قال هرون بن عنترة عن أبيه: دخلت على على بالخورنق وهو في فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك؟.. فقال: والله ما أرزوكم شيئا، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة.

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء، إنما هي مناعة قوية خصت بها بيته، لم يخص بها معظم الناس.

وكان إلى قوته البالغة، شجاعا لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا من الأقران بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت، واجتراً وهو فتى ناشئ على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بآلف رجل عند أصحابه وعند أعدائه، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا في الحديد ينادي جيش المسلمين: من يبارز.. فصاح على: أنا له يا نبئ الله.. قال النبي وبه إشراق عليه: إنه عمرو.. اجلس.. ثم عاد عمرو ينادي: ألا رجل يبرز؟.. وجعل يؤنفهم قائلا: أين جناتكم التي زعمتم أنكم دخلوها إن قتلتكم؟.. أفلأ تبرزون إلى رجال؟.. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول: أنا له يا رسول الله، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة: اجلس.. إنه عمرو، وهو يجيئه: وإن كان عمرا.. حتى أذن له فمشي إليه فرحا بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص.. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله: من أنت؟.. قال ولم يزد: أنا على.. قال: ابن عبد مناف؟.. قال: ابن أبي طالب.. فأقبل عمرو عليه يقول: يا ابن أخي.. من أعمامك من هو أحسن، وإنى أكره أن أهريق دمك، فقال له على: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك.. فغضن عمرو وأهوى إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار، واستقبل على الضربة بدرقه فقدها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه على على حبل عاتقه فسقط ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلا عن عمرو صريعا وعلى يجأر بالتكبير.

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذي لا يؤسى على مصابه؛ لأنَّه أحجى المصابين، وأقلها معاهة ألا يدفع.. فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسي بعد موته:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله
بكنته أبداً مادمت في الأبد

لكن قاتله من لا نظير له
وكان يدعى أبوه بيضة البلد

* * *

فكان شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيّب بها ومن
يصاب..

ويزيدوها تشريفاً أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزيّن شجاعة الشجاعان
الأقوياء.. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع
عليها على بغير كلفة ولا مجاهدة رأى. وهي التورع عن البغي، والمرءة مع
الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء، وسلامة الصدر من الضغف على العدو بعد
الفراغ من القتال.

فمن تورعه عن البغي، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحداً قط
بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: «لا تدعون إلى مبارزة. فإن
الداعي إليها باغ والباغي مصروع»..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له: إنهم خارجون
عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني. وسيفعلون!»..
وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صفت
أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض: يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن
المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

كان يعظ قوماً فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرون به فصاح معجباً
إعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه: قاتله الله كافراً ما أفقهه.. فوثب
أتباعه ليقتلوه، فنهاهم عنه، وهو يقول: إنما هو سبب أو عفو عن ذنب.

وقد رأينا أنه قال لعمرو بن ود: إني لا أكره أن أهريق دمك.. ولكنه على هذا لم
يرغب في إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين.. فعرض

عليه أن يكف عن القتال فأنف، وقال: إذن تتحدث العرب بفرازى، وناشده: يا عمرو، إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما. قال: أجل. قال: فإني أدعوك إلى الإسلام أو إلى النزال. قال: ولم يا بن أخي؟.. فوالله ما أحب أن أقتلك.. فلم يكن له بد بعد ذلك من إحدى اثنتين: أن يقتله أو يقتل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة: فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين: من يبارز؟.. فخرج إليه رجل من أصحابه على فقتله ووقف عليه ونادى: من يبارز؟.. فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى: من يبارز؟.. فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟.. فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه، وخف على أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه، ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه ب أصحابه، ثم قال مسمعا الصفوف: يا أيها الناس. إن الله عز وجل يقول: **﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحَرَمَاتُ فِصَاصٌ﴾**، ولو لم تبدعوا ما بدأناكم.. ثم رجع إلى مكانه.

أما مروءته في هذا الباب فكانت أnder بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان، فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا، وصلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظفر بعد الله بن الزبير ومرwan بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه فعوا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعراض عنه وتركه ينجو ب حياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشا.. فلما حمل عليهم وأجلهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أبىتم الله منك أولادك كما أبىتم

أولادى. فلم يرد عليها شيئاً، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها، قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين. أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع؟.. فانتهـرـهـ وـهـ يـقـولـ:ـ ويـحـكـمـ؟ـ إـنـاـ أـمـرـنـاـ أـنـ نـكـفـ عـنـ النـسـاءـ وـهـنـ مـشـرـكـاتـ أـفـلـاـ نـكـفـ عـنـهـنـ وـهـنـ مـسـلـمـاتـ؟ـ وـإـنـهـ لـفـيـ طـرـيقـهـ إـذـ أـخـبـرـهـ بـعـضـ أـتـبـاعـهـ عـنـ رـجـلـينـ يـنـالـانـ مـنـ عـائـشـةـ فـأـمـرـ بـجـلـدـهـمـ مـائـةـ جـلـدـةـ.ـ ثـمـ وـدـعـ السـيـدـةـ عـائـشـةـ أـكـرـمـ وـدـاعـ وـسـارـ فـيـ رـكـابـهـاـ أـمـيـالـاـ وـأـرـسـلـ مـعـهـاـ مـنـ يـخـدـمـهـاـ وـيـحـفـ بـهـاـ.ـ قـيـلـ إـنـهـ أـرـسـلـ مـعـهـاـ عـشـرـيـنـ اـمـرـأـةـ مـنـ نـسـاءـ عـبـدـ الـقـيـسـ عـمـمـهـنـ بـالـعـمـائـ وـقـلـدـهـنـ بـالـسـيـوـفـ..ـ فـلـمـ كـانـتـ بـبـعـضـ الـطـرـيقـ ذـكـرـتـهـ بـمـاـ لـاـ يـجـوزـ أـنـ يـذـكـرـ بـهـ وـتـأـفـتـ وـقـالـتـ:ـ هـتـكـ سـتـرـىـ بـرـجـالـهـ وـجـنـدـهـ الـذـينـ وـكـلـهـمـ بـىـ..ـ فـلـمـ وـصـلـتـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ أـلـقـىـ النـسـاءـ عـمـائـهـنـ وـقـلـنـ لـهـاـ:ـ إـنـاـ نـحـنـ نـسـوـةـ.

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة رضي الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغير القتال..

وتعدلها فى النبل والندرة سلامة صدره من الضغف على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغف عليه. فنهى أهله وصحابه أن يمثلوا بقاتلته، وأن يقتلوا أحدا غيره، ورثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة، وأوصى أتباعه لا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرّا عليه من معاوية وجنده: لأنه رأهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصريين..

寒 景 集

وتفترن بالشجاعة. ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم. صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها الشجاعة أشبه شيء بالنضج للماء، أو بالإشعاع للنور، فلا تكون شجاعة الفروسية إلا كانت معها تلك الصفة التي نشير إليها، وهي صفة «الثقة» أو «الاعتزاز» أو الادراك بالهيبة والتهليل على الخصوم ولا سيما في مواقف النزال وقد يسميها بعض الناس زهوا وليس هي به ولا هي من معدنه وسمته، وإن شابهته في بعض الملامح والألوان.

فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع..

أما هذا الاعتزاز الذى نشير إليه، أو هذه الثقة التى تظهر لنا فى صورة الاعتزاز، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلًا بعمله فى مواجهة خصومه، وهو عرض للقوة يساعد الفارس فى إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه.. مثلك هنا كمثل العروض التى تعمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها. فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها، وليس كل ما فيها ضربا من الخيال يرضى به الشجاع غروره ويتنهى به فى غير حاجة إلى التيه.

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمن وعهدوه وتحدثوا به وتناقلوه، فسمحوا للفارس - بل لعلهم أوجبوا عليه - أن يروغ من خصمه بالفخر المربع إذ يتقدم لنزاليه، وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار فى ذكر وقعته والتهليل بضرياته والإشادة بفزواته، وعلموا أنهم - وقد احتاجوا إلى شجاعته - محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب فى جنان قرنه، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة، وهى أحب القصائد إلى القلوب.

* * *

ومن تأصل هذه العادة فى الطبائع أنها تشاهد فى جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد، فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنا له إلا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره وائتمار نظره وتنفيش ريشه أو شعره، ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان، فإذا هو الفخر والحماسة، وإذا هو عنوان الثقة والإقدام..

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجها لوجه، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه.

وكانت هذه الصفة من صفات على رضى الله عنه، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضله، وينكرها من ينفّس عليه فيسمّيها الزهو أو يسمّيها

الجفوة والخيلاء. قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر: إنك والله ما علمت لتنظر الخيلاء.. ومر الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنيم، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له وضحك على يحييه. فقال الزبير: لا يدع ابن أبي طالب زهوه. قال رسول الله: إنه ليس به زهو، ولتقاتله وأنت له ظالم..

فليس هو بالزهو المكرود، ولكنها الشجاعة التي يمتلك بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها؛ لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس أنه يحتاج إلى مداراتها، وأنه لا يقصدها ولا يتعمد إبداءها..

* * *

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال. فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير. ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبي عليه السلام ينذروننه وينكروننه وهو يقلب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان بطيءاً أن يرتفع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتفاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع، ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين.. فما تردد وهم مستهزئون أن يصبح صيحة الواثق الغضوب: أنا نصيرك.. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القرؤم..

على هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة، وقد علم، تأتمر به مكة كلها من قتل الرائد على ذلك الفراش.

وعلى هذا هو الذي تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبي: اجلس. إنه عمرو فيقول: وإن كان عمراً.. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو ممتلك بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث.

وتمكن هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسيّة التي هي كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها.

وزادها تمكينا حسد الحاسدين ولجاجة المنكريين، وكلاهما خلائق أن يعتصم
المرء منه بثقة لا تنخلع، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها
من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأي حين كان يقول: «اسألوني قبل أن
تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا
عن فئة تهدي مائة إلا أنباتكم بناعقها وقادتها وسائقها، ومناخ
ركابها ومحط رجالها».

ومن شواهدها أنه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمرور: «ما أعرف
أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه
الأمة تسع سنين».

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه، فلما عتب عليه خصمه طلحة
والزبير أنه ترك مشورتهما قال: «نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا
بالحكم به فاتبعته. وما استن النبي ﷺ فاقتديته. فلم أحتاج في ذلك إلى رأيكما
ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهله فأستشيركما وإخوانى المسلمين، ولو كان
ذلك لم أرحب عنكما ولا عن غيركما...».

وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن
يتألف، بل كان يقول: «شر الإخوان من تكلف له» ويقول: «إذا احتشم المؤمن أخاه
فقد فارقه»، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والإرضاء يخطئون ما انتظروه،
ولا سيما إذا هم انتظروه من أرذاق رعاياه وحقوقهم التي اؤتمن إليها. فيحسبون
أنها الجفوة البينة وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك.. إنما هي شجاعة
الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها، وإنما هو امتعاض المغموم المسيء ظنا
بمن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رباء. فما كان يتكلف إظهار تلك
الخلافات زهوا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها، بل كان قصاراً لا يتكلف
الإخفاء، فإذا التفت قاصداً إلى ما في نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه، بل
ينهى عنه ويشتت في اجتنابه، ويوصي من أحب: «إياك والإعجاب بنفسك والثقة
بما يعجبك منها»... «واعلم أنه الإعجاب ضد الصواب، وأفة الألباب».

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق على عليه السلام أنه كان لا يتكلف إظهار شيء
ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل في

الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له: «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

* * *

وكانت قلة التكاليف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة. وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء. كأنه يعني ما يصنع وهو لا يعنيه، وإنما يجئ منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها: كان مثلاً يخرج إلى مبارزته حاسر الرأس ومبرزوه مقنعون بالحديد. أفعجib منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء؟.. وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان. أفعجib منه، مع هذا، أن يقل اكتراهه لكل خضاب ساتراً ما ستر، أو كاشفاً ما كشف، من رأى وخلقة؟

بل كانت قلة التكاليف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها.. أو هي قريبة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلماً تفارقها، ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترئ به الرجل على الضر والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والنعماء. فما استطاع أحد قط أن يحصي عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحربه، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعله كان أحوج إلى المساندة بين النصراة مما كان بين الأعداء: لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء، حتى قال فيه أقرب الناس إليه: إنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكن لا يعرف خدعتها. وكان أبداً عند قوله: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل على علمك، وأن تتقى الله في حديث غيرك»..

* * *

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سبب دولة، وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيدتها، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول: «لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم».. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمينة التي

تبغض علياً وتخلق له السينات وتخفي ما توافر له من الحسنات: «أزهد الناس في الدنيا على بن أبي طالب». وقال سفيان: «إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصاص التي يسكنها الفقراء، وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام. وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقة قال: «دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لين حامض أذنني حموسته وكسر يابسة. فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟.. فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أحسن من هذا. وأشار إلى ثيابه. فإن لم أخذ بما أخذ به خفت ألا أحق به»..

وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضي الله عنه أبعد الناس من كرازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال له: «لله أبوك لولا دعابة فيك» وأنه قال لمن سأله في الاستخلاف: «ما أظن إلا أن يلى أحد هذين الرجلين: على أو عثمان. فإن ولی عثمان فرجل فيه لين، وإن ولی على ففيه دعابة، وأحرى به أن يحملهم على الطريق».

* * *

وأغرق ابن العاص في وصف الدعابة فسمها «دعابة شديدة» وطفق يرددها بين أهل الشام ليقبح بها في صلاح الإمام للخلافة، وإنما نقول: إن ابن العاص أغرق في هذا الوصف، وإن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته؛ لأن تاريخ على وأقواله ونواوره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلاً على خلق الدعابة فضلاً عن الدليل على الإفراط فيه.. فإن كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر ابن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل سنين عدة، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومربييه فحسبت هذه الدعوة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه.

وقد كانت للإمام صفات ومزايا فكرية تناصي المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية. فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته، واتفقوا على علمه وفطنته، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهائه في سياسة الرجال.

والحق الذى لا مراء فيه أنه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء، وأنه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق إليه علم فارس أو علم يونان.. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأديب الليبي..

إلى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف، ثم يفترق الناس في رأيه رأيين وإن لم يكونوا من الشانئين المتحزبين، فيقول أناس: إنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس: بل هو الاضطرار والتجربة يقيدهما ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه في الفطنة والسداد، وهو رضي الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابهه من هذا العذر حين قال: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولو لا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس»..

* * *

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفصله في موضعه من الفصول التالية مشفوعاً بمناسباته، ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحققتين تجملان ما نبسطه في موضعه من الكتاب، ولا نحسبهما تتسعان لجدل طويل، وهما أن أحداً لم يثبت قط أن العمل بالأراء الأخرى كان أجدى وأنجح في فض المشكلات من العمل برأي الإمام، وإن أحداً لم يثبت قط أن خصوم الإمام كانوا يصرفون الأمور خيراً من تصريفه، ولو وضعوا في موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التي اصطلحت عليه. وكلتا الحقيقتين حرية أن تضيّط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك.

هذه صفات تنتظم في نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوى، وصادق لأنه شجاع، وزاهد مستقيم لأنه صادق، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسطح والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها إلا الذي اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم.



مفتاح شخصيته

«آداب الفروسية» هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفخر منها كل مغلق ويفسر منها كل ما يحتاج إلى تفسير.

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة وهي: النخوة..

وقد كانت النخوة طبعاً في علىٰ فطر عليه، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيـه، وعادة من عادات «الفروسية» العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وينشأ فيـ حجرها؛ لأن للغلبة فيـ الشجاع أنفة تأبـى عليه أن يـسفـ إلى ما يـخـجلـه ويسـيـنهـ، ولا تزالـ بهـ حتىـ تـعلـمـهـ النـخـوةـ تـعلـمـاـ، وـتـمـنـعـهـ أـنـ يـعـمـلـ فـيـ السـرـ ماـ يـزـرـىـ بـهـ فـيـ العـلـانـيـةـ.

وهكـذاـ كانـ عـلـىـ رـضـىـ اللـهـ عـنـهـ فـيـ جـمـيعـ أـحـوالـهـ وـأـعـمـالـهـ: بـلـغـتـ بـهـ نـخـوةـ الفـروـسـيـةـ غـاـيـتـهـ الـمـثـلـيـ، وـلـاـ سـيـماـ فـيـ مـعـاـمـلـةـ الـضـعـفـاءـ مـنـ الـرـجـالـ وـالـنـسـاءـ، فـلـمـ يـنـسـ الـشـرـفـ قـطـ لـيـغـتـنـمـ الـفـرـصـةـ، وـلـمـ يـسـاـوـرـهـ الـرـيبـ قـطـ فـيـ الـشـرـفـ، وـالـحـقـ أـنـهـمـ قـائـمـانـ دـائـمـانـ كـأـنـهـمـ مـوـدـعـانـ فـيـ طـبـائـعـ الـأـشـيـاءـ، فـإـذـاـ صـنـعـ مـاـ وـجـبـ عـلـيـهـ فـلـيـنـسـ مـنـ شـاءـوـاـ مـاـ وـجـبـ عـلـيـهـمـ، وـإـنـ أـفـادـوـاـ كـثـيرـاـ وـبـاءـ هـوـ بـالـخـسـارـ.

أـصـابـ الـمـقـتـلـ مـنـ عـدـوـهـ مـرـاتـ فـلـمـ يـهـتـبـ الـفـرـصـةـ السـانـحـةـ بـيـنـ يـدـيـهـ؛ لـأـنـهـ أـرـادـ أـنـ يـغـلـبـ عـدـوـهـ غـلـبـةـ الـشـجـاعـ الـشـرـيفـ، وـلـمـ يـرـدـ أـنـ يـغـلـبـهـ أـوـ يـقـتـصـ مـنـهـ كـيـفـاـ كـانـ سـبـيلـ الـغـلـبـ وـالـقـصـاصـ..

قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستويًا بساطا واسعا وأخذوا الشريعة. أى مورد الماء. في أيديهم.. وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء، ففرزنا إلى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: أنت معاوية وقل له: إنا سرنا مسيرنا هذا إليك ونحن نكره قتالكم قبل الإذار إليك، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلوك وبدأتنا، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتاج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها إذ حلتم بين الناس وبين الماء،

والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء
ويكفووا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له...».

ثم قال راوى الخبر ما معناه: إن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول
بين على وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته إلى المفاوضة فى
أمر الخلاف، فأنفذ معاوية مدردا إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب
منه، ثم كان بين المعسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى
اقتحم أصحاب على طريق الماء وملوكه.

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء على أن يهتبها، وأن يغلب أعداءه بالظلمأ كما
أرادوا أن يغلبوا به قبيل ساعة.. وقد جاء أصحابه يقولون: والله لا نسيهموه،
فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتسع لهم ويستلهم قلوبهم من أجلهم.
وصاح بهم: «خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله
عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم».

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة فى حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبها
وأغضب أعدائه إنصافا لأعدائه؛ لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحو السبى
وهو فى رأيهم حلال. قالوا: أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟.. فقال:
«إنما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب
فقتاله منى على الصدر والنحر» وسن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة حين
أوصاهم لا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يمدوا يدا إلى
مال.

ومن الفرص التى أبى عليه النخوة أن يهتبها فرصة عمرو بن العاص وهو
ملقى على الأرض مكسوف السوأة لا يبالى أن يدفع عنه الموت بما حضره من
وقاء، فصدق بوجهه عنه آنفا أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه المخافة التى لا
يرضاها من مثازله فى مجال صراع، ولو غير على أتيح له أن يقضى على عمرو
لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به، ولا
جناح عليه.

* * *

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع أدابها وتأثيراتها.

فكان يعرف العدو عدواً حيثما رفع السيف لقتاله.. ولكن لا يعادى امرأة ولا رجلاً مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن نضال ولا ميتاً ذهبت حياته ولو ذهبت في سبيل حرية.. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلّى عليه.

وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام.

فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: «إنى أكره أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول. وأبلغ في العذر. وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلاح ذات بیننا وبيّنهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوی عن الغى والعدوان من لهج به».

وريماً شذ عن سنته هذه في بعض الأحایين فإذا به لا يشد عنها إلا كما يشد الفرسان حين تغلبهم بواذر اللسان.. فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجارى بها غضبه الذي طبع على إبدائه ولم يطبع على كتمانه.

ومن قبيل هذا كلمات قالها علىٰ في ابن العاص وفي معاوية وفي الأشعث بن قيس وغير هؤلاء.. ولكنه لم يجعلها ديدنا له كما سبواه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار.

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجندي وأفتشى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبها وهاج غيظه فبدره بقوله: «عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين: حائث ابن حائث، منافق ابن كافر، والله لقد أسرك الكفره مرة والإسلام أخرى. فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك، وإن امرأً ولی على قومه السيف وساق إليهم الحتف لحرى أن يمتهن الأقرب ولا يأمنه الأبعد».

* * *

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وإدحاض زعمه، فقال رضي الله عنه في بعض خطبه: عجباً لابن النابغة!.. يزعم لأهل الشام أن في دعابة وأنى امرؤ تلعابة: أعنان^(١) وأمارس.. لقد قال باطلًا ونطق آثما. أما.. وشر القول الكذب - إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويُسأل فيبخل، ويخون العهد ويقطع الآل^(٢). فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها. فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنع القوم سبته، أما والله إنني ليمنعنى من اللعب ذكر الموت. وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة وأنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يوتيه أتية ويرضخ له على ترك الدين رضيحة^(٣).

وكذلك كان يجبه معاوية وغيره ببنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح في دعوته، فلا يشد عن دين الفرسان في رؤية فكره ولا في بوادر لسانه، ولكن الفلتات التي من هذا القبيل شيء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاماً مشهوراً وسبيلاً إلى القول الباطل شيء آخر..

ولقد كانت للإمام رضي الله عنه شواغل أخرى غير الفروسيّة تجري في مجريها حيناً وتبدو غريبة عنها حيناً آخر في عرف بعض الناقدين، ومنها التفقة والنزوع إلى «التصوف» واستنباط حقائق الأشياء.

* * *

فهذه في عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسيّة على ظاهر ما قدروه.. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة؟.. أليس هو في معدنه جهاداً في الحق أو جهاداً في الله؟.. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسيّة من معدن واحد؟.. ألم نعهد في كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون، أو يتدينون ويتنتطسون لأنهم مجاهدون؟..

فالإمام على رضي الله عنه فارس لا يخرجه من الفروسيّة فقه الدين، بل هو أخرى أن يسلكه فيها، ولا يخرجه من الفروسيّة بعض المقال في خصوصه، بل هي بوادر الفرسان بعينها، ولا تزال أداب الفروسيّة بشتى عوارضها هي المفتاح الذي يدار في كل باب من أبواب هذه النفس فإذا هو منكشف للناظر عما يليه.

(١) المعانسة: مضاربة الناس مزاجاً ومحاذاة النساء.

(٢) الآل: القرابة والرحم.

(٣) الآتية: العطية، ومثلها الرضيحة مع قلة.



إسلامه

ولد على في داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمة إذانا بعهد جديد للكعبة ولل العبادة فيها.
وكاد على أن يولد مسلما..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح؛ لأنَّه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام.

فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بيته وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة. فكان ابن عم محمد عليه السلام ورببه الذي نشأ في بيته ونعم بعطافه ويره، وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويلوّثونه على آبائهم وذويهم، فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد، ويجمعه به بيت، ويجمعه به جميل معروف: جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسُّ ابن أبي طالب ويأوي إليه..

واختلفوا في سُنَّة حين إسلامه من السابعة إلى السادسة عشرة، ولعله أسلم في نحو العاشرة؛ لأنَّه كان يناهزها عند إعلان الدعوة المحمدية، وكان النبي عليه السلام يتبعده في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة، وليس ما يمنع علياً أن يألف تلك العبادة في طفولته الباكرة فإذا هو نفر منها، وأعرض عنها لغير سبب في تلك الطفولة الباكرة، فالعجب أنه يعود إلى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التي يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد.

ولولا ألفة على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى إليه، فقد أصرَّ كثير من أقرباء النبي على الشرك زمناً طويلاً، منهم عقيل أخيه وأحب إخوته إلى أبيه، فحارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحابه.. بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين..

* * *

على أن الألفة بين أبني العם الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقاً لإسلام علىٰ في طفولته الباكرة.. لأن النبي عليه السلام أبى أن ينزع الطفل من دين أبيه وأبواه لا يعلم، وأشدق أن يكون بره بعمه وباين عمه سبيلاً إلى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفي سراً عن أبيه كأنه يخدعه بإخفائه ولو في سبيل الهدایة والخیر، فظل هذا الحرج الكبير عائقاً عسيراً أعسر ما فيه أنه عائق اختيار يهون معه الاضطرار، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم.. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونصر ابن أخيه وأمر علياً بمتابعة ابن عمّه ونصره، فأقبل الغلام البر ب أبيه ويكافله إقبالاً لا تلجلج فيه على الدين الجديد.

وملأ الدين الجديد قلباً لم ينزع فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى عقابيله.. فبحق ما يقال: إن علياً كان المسلم الخالص على سجيته المثلثي، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً منه ولا أعمق نفاذًا فيه.

كان المسلم حق المسلم في عبادته، وفي علمه وعمله، وفي قلبه وعقله، حتى ليصح أن يقال: إنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلا ما يزيده التعليم على الطياع..

كان عابداً يشتهر العبادة كأنها رياضة تريده وليس أمراً مكتوباً عليه.. وكان يرى في كهولته وكأنما جبهته ثفنة بغير من إدمان السجود وكان علىٰ محجة في الإسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لحسية، فكلما زينوا له الهوادة أبى «أن يداهن في دينه ويعطى الدنيا في أمره» وأثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس..

وكان دينه له ولعدوه، بل له ولعدو دينه، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وأذاه..

* * *

وقد درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعى ولم أبع ولم أهب، فسأل

شريح النصرانى: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟.. قال النصرانى: ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكافر!.. فاللتفت شريح إلى علىٰ يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟.. فضحك علىٰ وقال: أصحاب شريح. ما لى بينة!.. فقضى بالدرع للنصرانى فأخذها ومشى و «أمير المؤمنين» ينظر إليه.. إلا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يديتنى إلى قاضيه يقضى عليه!.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين.. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذ أسلمت فهى لك. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجندي بلاء فى قتال الخوارج يوم النهروان.

وأحسن الإسلام علمًا وفقها كما أحسن عبادة وعملا، فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن لها رأي فيها يُؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء..

غير أن المزية التي امتاز بها علىٰ بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل، ولم يقتصره على العبادة وإجراء الأحكام، فإذا عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز علىٰ بالفقه الذي يراد به الفكر المحسن والدراسة الخالصة، وأمعن فيه ليغوص في أعمقها على الحقيقة العلمية، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميه في هذه الأيام.

卷一百一十一

ويصح أن يقال: إن عليا، رضي الله عنه، أبو علم الكلام في الإسلام؛ لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة. فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ على رضي الله عنه. وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن على بن أبي الحسن على بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائى، وأبو علي الجبائى أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء.. أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن

محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهي الأمر إلى علىٌ رضى الله عنه. وقد قرأ مالك بن أنس على ربعة الرأي، وقرأ ربعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقرأ عبد الله بن عباس على علىٌ رضى الله عنه، وقيل لابن عباس: أين علمك من عما؟.. فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط..

* * *

قال ابن أبي الحميد: «ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنه يقفون، وقد صرخ بذلك الشبل والجنيد وسرى وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم، ويكفيك دلالة على ذلك: الخرقة التي هي شعارهم إلى اليوم، وكونهم يسدونها بإسناد متصل إليه عليه السلام...».

وقد جمع «نهج البلاغة» نماذج شتى من الكلمات التي تنسب إليه ويصح أن تُحسب أصلاً «للعلم الإلهي» أو لأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية. وربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات إلى علىٌ رضى الله عنه؛ لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج بها ما لابد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده.. ولكن شيئاً على هذا النهج لابد أن يكون قد صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على التحو الذي تواترت به الأقوال، وأجمله ابن أبي الحميد فيما تقدم..

ولنا أن نقول: إنه كان رضى الله عنه يتلذذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصاً في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه. فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب إنما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة في الأرحام. فهو تلميذ ربه جلٌ وعلا في قوله عن الخفاش: «من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غواص الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبحها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القاپض لكل حي، وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدى به في مذاهبها.. فسبحان من جعل

الليل لها نهاراً ومعاشاً. والنهار لها سكناً وقراراً، وجعل لها أجنة من لحمها تخرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان، غير ذوات ريش ولا قصب.. تطير وولدها لاصق بها لاجئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تستد أركانه، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه، فسبحان البارئ لكل شيء على غير مثال خلاف غيره».

ومثله قوله عن الطاووس: «ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل ونضد ألوانه في أحسن تنضيد، بجناح أشرج قصبه وذنب أطال سحبه، إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه، وسما به مظلاً على رأسه.. وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعاً، فينحت من قصبة نحتات أوراق الأغصان، ثم يتلاصق ثانياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه»..

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفى على نحو من الأنحاء فى عصر الإمام على رضى الله عنه؛ لأنه كان عهداً نبتت فيه أصول الفرق الإسلامية جمياً من الخارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين فى قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب.. فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة في الاجتهاد والنظر وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه وتعبيرها صادقاً لتفكيره ووعيه، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التي قدمناها وإن لم تكن هي إياها بالنص والتفصيل..

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الإمام على سجيته مؤثراً للاجتهاد ما استطاعه، معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه، فوافق الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور، وأبى أن يأتم بعملهم فيما يراه وما لا يراه، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال: «.. أعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخذ به إلى من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكرا.. فإن أبى نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات، وعلق الخصومات، وابتدئ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك، والرغبة إليه في توفيقك، وترك كل

شائبة أولجتك في شبهة أو أسلمتك إلى ضلاله، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك، وتم رأيك فاجتمع، وكان همك في ذلك هماً واحداً، فانظر فيما فسرت لك...».

وريما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعریف بإسلام علىٰ كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه.. فإنما هو إسلام المسلم «المطبوع» الذي يبتكر دينه؛ لأنه يعتمد فيه علىٰ وحى بصيرته وارتجال مزاجه، وإنما هو إسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهاد إلىٰ رياضة النفس علىٰ سُنَّة النساك وتمحيص الفكر علىٰ سُنَّة العلماء، وإنما هو إسلام الرجل الذي أتيح له أن يتتلمذ لربه ويتربي في حجر نبيه ويصبح إماماً للمقتدين من بعده..

* * *

عصر الإمام



كانت الظاهرة الكبرى في عصر «علي» ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية، على شدة القتال فيها وغزاره الدماء التي أريقت في حرويها..

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية.
وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه إنشاؤها..

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الإسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة. فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة، وعلى أساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها..

أما عصر عليٍ فكان عصرًا عجيباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه أو هو لم يكن عجيباً؛ لأنَّه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب؛ لأنَّه كان بناءً جديداً في سبيل التمام، ولم يكن بناءً متداعياً فكله هدم واندثار، ولا بناءً قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار.

غير أنَّ العجيب فيه حقاً أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين: في أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي والرغبة في بقائه وتدعيمه، وفي الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعي والتحفز لتفويضه وتحويله.

أحدهما، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي، كان قسم معاوية بن أبي سفيان في الشام وما جاورها.

والآخر، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعي، كان قسم علي بن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أنحائه.

كانت الشام بمعنى من المعانى أرضاً أموية فى عهد الجاهلية فلجاً إليها أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة، وقصد إليها أبناءه متجرين أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية.

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبي سفيان أن يتولى الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبي بكر الصديق، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر، فلم يزل مقيناً على إمارتها بضع عشرة سنة إلى مبايعة على بالخلافة بعد مقتل عثمان، فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممهد لتأسيس السلطان الأموي الذي لا ينازعه منازع من حوله، ولم يزل منذ تولاهما عاملًا على البقاء فيها واصطناع الأعون المؤيدين له في حكمها، فلم يتوان في استرضاء رجل ينفعه رضاه، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع والأجناد، بل كان يرضى كل من وسعه إرضاؤه، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع إلى..

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس إلى خصومه وأولادهم باجتنابه والنقمه عليه.. ومنهم عقيل أخو على بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن زمعة، وعمرو بن العاص، وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوى الأخطار.

أراد عقيل من أخيه مالاً يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول: «إن أخي خير لي في ديني، ومعاوية خير لي في دنياي» وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن علىٰ والمقربون من معاوية بالنسبة والرجاء.

قد همه إرضاء السواد وال العامة، كما همه إرضاء الشرفاء وذوى الأخطار.. «وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال من صرفهم عن صفين. فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني بصفين فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته.. فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة. فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه ويره وأحسن إليه، وقال له: «أبلغ علياً أني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل!».

ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأغاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها^(١).

فإن كان في هذه القصص بعض المبالغة فهي مبالغة الفكاهة الموكلة بتكيير الملامح ليراها من غفل عنها، وليس مبالغة الخلق والافتراء.

وما هي إلا سنوات على هذه الوريرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعي الجديد، راغب في تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال.

وعلى قدر هذا الدأب الشديد في احتلال أسباب التمكين والتدعم كان له دأب مثله في اتقاء أسباب التمرد، والإخلال بالنظام، كما نسميه في هذه الأيام..

فما سمعت قط صيحة فتنة إلا بادر إليها بما يسكنها ويردها إلى طلب الاستقرار والدوم. فمن أجدى معه المال أسكنه بإغراق المال عليه، ومن كان من أهل الجد والإخلاص في العبادة والزهادة فهو محظى على إقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه في المصلحة ولا تعبيه.

حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذي استفاض بين العلية والشرفاء فارتفع عليهم صيحة أبي ذر الغفارى بالنكير، وطفق يطالب الأغنياء بالإإنفاق في سبيل الله، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكى الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره: «ويشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنبوهم وظهورهم».

فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل إلى أبي ذر ألف دينار يسكنه بها إن كان من يسكنهم الغنى عن الأغنياء، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير في أيدي المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه، ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية رسوله الذي حمل إليه الدنانير يقول له: «أنقذ جسدي من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك فاختلطت بك. فقال له: يا بنى، قل له: والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار.. ولكن آخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها.. فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغنى عن القسوة، وكتب إلى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه، فأتاه الإذن بنفى أبي ذر من الشام إلى

(١) مروج الذهب السعودى: الجزء الثانى.

المدينة، ثم خاقت به المدينة أیضاً فنفی منها إلى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء.

* * *

وصنع بعد الله بن سبأ، صاحب القول برجعة النبي إلى الدنيا ووصاية على على الخلافة . مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه، فلما يئس منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه..

والتفت إلى من سماهم أهل الفتنة من طلاب الإصلاح والتبديل فكتب في أمرهم إلى الخليفة يقول: «إنه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم، وليسوا بالذين ينكرون أحداً إلا مع غيرهم...».

ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحاً منهم بالنفي والإقصاء، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح.

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح إلى التغيير، حتى تحيزت له الشام عند مبادئها وأعمدها وأعظم ما يأتي في مثل ذلك العهد من دواعي السكينة واستدامة الحال، وأقل ما يأتي فيه من شواجر الفتنة والعصيان..

* * *

أما على فقد شاءت المصادرات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الإسلامية أيما انعكاس، فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضا والاستدامة، وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالإخلال بالنظام..

فكان التنافس عنده على أشدّه بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهوئاء. حتى ضاق به المقام في الحجاز وأوى إلى الكوفة مأوى «المستجير من الرمضان بالنار».

وكانت قبائل البارية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة، وينظرون إليهم نظرتهم إلى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسيطرة، وهي حالة كان أحجى بالولاية أن يخفوها ويتطفووا في إصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من إصلاح وتبديل، ولكنهم على نقیض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والى الكوفة: «إنما السواد بستان لقريش!»..

وظهر هذا السخط من أثرة قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البارية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين على وأنصاره، فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول:

«يا معاشر المهاجرين!.. أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ فكان لكم بذلك فضل..» إلى أن قال يشير إلى خلافة أبي بكر: «ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك. فرضينا وسلمتنا. فلما توفي جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان، وبايعتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا، فما الذي نقمتم عليه فنقاتلهم؟!»..

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله، فكيف بكلام الرجال من ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة؟.. ولعل النافذين بهذا الغيظ كانوا يثويبون إلى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون إليه فيحسن الإصغاء والاعتراف لهم بالحق في دعواهم، ولكنهم كانوا يشكرون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم إلى الصمت راغمين، فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله ل ساعته لو لا أن حمته عشيرته و أصحابه. ثم وثبوا عليه في الغد فقتلواه وقتلوا معه قرابة سبعين.

* * *

وكان العبيد والموالي والأعراب المحرومون حانقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإنصاف، ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالي

والأعراب المحررمين. فلما طوب على بالاقتراض منهم لمقتل عثمان قال: «... كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكونهم؟.. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبادكم وثبتت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا فهلا ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون؟».

وقالت السيدة عائشة، رضي الله عنها: «أيها الناس! إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس.. والله لأصبح عثمان خير طباق الأرض أمثالهم...».

* * *

وكان مع على جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسخ والفقه والشريعة، وهم خلق كثير يعدون بالآلاف ويتفرون في الحواضر والبواقي، ولا يزالون كأنبياء بني إسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين، منكرين لكل خلاف ولو يسير في إقامة أحكام الدين، لا يرضون عن الدنيا ولا عن رضي بها من طلابها، ولا يستمعون إلى أمر إلا أن يكون في رأيهم وفاقاً لحكم القرآن كما يفسرونها وحكم السنة كما يعتقدونها. وطالما وقفوا بين على وبين القتال؛ لأنهم لا يستجيزونه، أو عن الصلح والتحكم؛ لأنهم يجلون القرآن عن قبوله.. فإذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل؛ لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهو لاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلا ما أجازوه واستوجبوا؛ لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر، فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسامون في جماعة. وهم أقرب الناس في ذلك العهد إلى الجهر بالنذير والنداء بالتبديل والتغيير، والإصغاء إلى وحي الضمير قبل دعاء الأمير.

وأجتمع مع على في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع إليها ولو لم يجهر بطلبيها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها. فمنهم من كان يقول على: نبأيك على أنا شركاؤك، ومنهم من كان يتغزل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب علياً باسم عثمان، تمحلاً لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور..

* * *

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحدزان منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشرج بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها، ثم ينصلح شمل الأمة بالتشريع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلاً:

«.. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوفهم وظمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله»..

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره، فانطلقوا حيث ذهبوا بهم المذاهب. وكان منهم ما حذر أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف: «ورأيت الدنيا قد أقبلت.. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي»^(١) كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان».

* * *

روى المسعودي أنه «في أيام عثمان اقتني الصحابة الضياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة، ويبلغ الثمن الواحد من متراوك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربوط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، ويبلغ الريع من متراوكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفتوس غير ما خلف من الأموال والضياع. وبين الزبير داره بالبصرة وبيني أيضا بمصر والكوفة والإسكندرية.. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبينها بالجص والأجر والساج، وبيني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سعوها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات، وبيني المقداد داره بالمدينة وجعلها

(١) منسوب إلى أذربيجان.

مجصصة الظاهر والباطن، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاثة ألف درهم».

* * *

هؤلاء أيضاً أصبحوا في حصة على من الدولة الإسلامية عنصراً من أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة، خلافاً لأمثالهم في معسكر معاوية.

فالذى يغلب على أصحاب الثروات في كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسي أو الاجتماعي على التخصيص، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود في مجتمع على فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو في سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور وفي الثورة بفعل محسوس؛ لأنهم عرفوا علياً من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد.

عرفوا مذهبهم في حساب الولاية ومذهبهم في حساب الخلافة، فلما كان واليا لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا إبل الصدقة وقال لهم: إنما لكم منها سهم كما للمسلمين، ثم لام العامل الذي أذن لهم أن يركبوها في غيبته وهو منصرف إلى الحج. وشاعت هذه القصة: لأن أناساً شكوه إلى رسول الله ﷺ، فأنكر شكاهم منه وقال: «لقد علمت أنه جيش في سبيل الله».

* * *

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب علىه؛ لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بمحباه في رأيه، ولقي بالعتاب كل صاحبى من إخوانه جمع مالاً واستهواه فتننة البذخ والثراء.

وليس مذهب واليا ولا مذهب خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه.

ولم يكن في وسع على أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك، وهو لا يشاوه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره؛ لأنه إذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار

المفتوحة التي ثارت بعثمان وبأيوب علىٰ بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه.

فلا دعاة الدنيا راضون مطיעون، ولا دعاة الدين راضون مطيعون، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون، وما منهم إلا من هو قلق متوفز لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار.

وكل أولئك كانوا في حصة علىٰ من الدولة الإسلامية، ولم يكن لمعاوية في حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر، بل كان له في موضع كل واحدة منها دعامة تمكين وتأييد.

وإن هذه الشواجر علىٰ كثرتها وقوتها لفي غنى عن علة أخرى من علل الفساد والشقاق تضاف إليها.

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت علىٰ حصة علىٰ من الدولة الإسلامية.. فقد أضيفت إليها علة أخرى، بل أضيفت إليها أكثر العلل التي تبتلي بها دولة أو حكومة، وهي اعتمادها في مواردها علىٰ غيرها..

فكان موارد الشام في الشام نفسها من خراج أو أنفال أو تجارة. أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وإن دخلت في طاعته وجنحت إلى القائم بالأمر فيه. وكانت مصر والسودان من حصة علىٰ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيراً لتعاقب الولاة فيها، ولم يستفاد بالسودان كثيراً لتعاقب الفتن والغاريات عليها.. وحسبك من هذا داعية قلق وبأيوب مخافة ومبطل أمان وطمأنينة..

* * *

ويينبغي أن نذكر أن الحيلة في هذا التقسيم قليلة، وأن الحوادث هي التي اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم إلى ولاية أمرها و«كما تكونوا يول عليكم».. ولا محل في هذه القاعدة لحيلة أو اختيار..

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقة من معاوية، ولم يكن أحد أشبه من علىٰ بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها إلى التغيير.

إن شكاً أنساً غلبة قريش، فعلىٌ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدها عليه ونكرانها لحقه، ويقول في كتاب من كتبه إلى أخيه: «.. ودع عنك قريشاً وتركاً ضمهم في الضلال وتحولهم إلى الشفاق، فإن قريشاً قد أجمعوا على حرب أخيك إجماعها على حرب رسول الله ﷺ قبل اليوم..».

وإن جاءت صيحة الإصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب الحفاظ والقراء والنساك فعلٌ كان إمام أهل العلم والقراءة، وأحق من يتكلم بتقديمه أو تفسير.

وإن جاءت من ضيّم الفقراء فعلٌ فقير، أو من تهافت الولاة على المال فعلٌ يبغض هذا التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل إليه..

فما شكا شاكٍ قط إلا وعلىٌ له في شكاوه، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التي قامت على التبرم بالحال والطموح إلى التغيير؟.. وأية حيلة له إلى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير؟

* * *

كان علىٌ نموذج أصحابه الأعلى، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى. وكانا لأجل ذلك في موضع رشحتهما له الحوادث قسراً قبل أن يرشحا له بإرادة مريدة. وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما في الرأي والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبداً، وما لم نذكر أبداً أن أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه، وأن الآخر كان يعمل والحوادث عدة في يديه!..

* * *

البيعة



بويع لعلى بالخلافة بعد حادثة من أفعى الحوادث الدامية في تاريخ الإسلام، وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شیخوخته الواهنة. بعد أن حصروه بين جدران داره، وكاد يقتله الظمآن لو أمهله القتلة بضعة أيام..

وأفعى ما كان في هذه الحادثة، أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه؛ لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعارضه.. فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء، وإذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنفين متساوين، فمن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة، وليس في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء..

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضي في عهد خليفة..

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعن ومن جانب الرعية، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها، وإن ظهرت عواقبها طارئات.

وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة، وهما إمعان الخليفة في الشیوخة، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتعة.

ولقد كتبت الأسفار المطولة في إحصاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه، وكتبت الأسفار المطولة في تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأذار وتفسيرها على أحسن الوجوه؛ لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية، وانتقلت إلى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج.. فجعلها الشيعة وأهل السنة ذريعة إلى تأييد مذهب وإنكار مذهب

في الخلافة والخلفاء، وراح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع، ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن.. وإنما المرجع فيه إلى تاريخ عثمان..

إلا أننا نجتزئ هنا بالإشارة إلى التذمر الذي أثار الفتنة، والإلمام بأسبابه عند أصحابه.. فمما لا شك فيه أنهم تذمروا لأسباب تثيرهم وإن طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب.

أهم هذه الأسباب، أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبي عليه السلام في الأذان والصلاه، وأنه أدنى أناسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقساهم عن المدينة.. فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران. وأنه منح سفيان بن حرب مائة ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال، وأنه توسع في بناء القصور، وحرم بعض الصحابة، وضرب بعضهم على مشهد من الملا ضرب إهانة وإيذاع..

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربيون من جانب آخر، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائما في أمثال هذه الأحوال من الملاحة والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة، وإضافة الأوهام إلى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحناه.

ويدل على خطر مسألة الثروة في هذه الفتنة، أن الناس تألبوا على الخليفة مرة.. فأرسل في طلب على ليصرفهم عنه، فلما قدم إليه استأذنه في إعطائهم بعض الرفد العاجل من بيت المال، فأذن له.. فانصرفوا عن زعماء الفتنة، وهدءوا إلى حين..

ثم توافد المتذمرون من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين.. وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مأخذ الخليفة.. فلما حملها عمار بن ياسر إليه، غضب وزيره مروان بن الحكم، وقال له: «إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس.. وإنك إن قتلتة نكلت به من وراءه» فضربوه حتى غشى عليه.

وفي مرات أخرى، كان الخليفة يصغى إلى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه، ثم يعلن التوبة إلى رعاياه، ويؤكد لهم الوعد بإقصاء أولئك الأعواان وإخلاقفهم في أعمالهم بمن يرضي المسلمين، ويرضي الله.

ثم يغلبه أولئك الأعواان على مشيئته، فيبقيهم حيث كانوا ويملى لهم فيما تعودوه من الترف والنكاية، وعلى رأسهم مروان بن الحكم.. أبغض أولئك الأعواان إلى المسلمين، حتى من أهل الخليفة المقربين.

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم، فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على ملاً من الشاكين الذين ينتظرون الإنصاف.. فيعود المضروبون إلى الشكوى، وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسىء إليهم. فإذا توجه الوالي الجديد إلى مكانه، إذا في الطريق رسول يحمل خطاباً للوالى المعزول، يأمره فيه بقتل من يقدر إليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية. ويقره فى مكانه!

حدث هذا مع وفاة مصر، واحتلت الأقاويل فى تأويله من متهم للخليفة، ومتهم لمنافسيه على الخلافة، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب، ومتهم لمروان بن الحكم - عنصر السوء فى هذه المأساة كلها - وهو أولى الأقاويل بالترجح والتصديق، إذ كان أيسر شيء على مروان لو كان بريئاً من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب، وفي كشف هذه الحقيقة إبراء له، وتعزيز لسلطان الخليفة، وفضيحة لأعدائه، وإدحاض لحجية الفتنة، ودعوة الإثارة والتحريض.. ولكن أهمل السؤال، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه..

* * *

وظل الخليفة والثوار يشتباكون ويتحاجزون.. لا هم فى حرب، ولا هم فى سلام..

وكلما تاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر، زاد الخليفة ضعفاً، وزاد الثوار ضراوة، وزاد التوجس بينهم استفحلاً واتسع مع التوجس مجال السعاية والإرجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله..

وتتوسط على بين الخليفة والثوار، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكرهين.

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة على... ومنهم من يسىء الظن، ويرى أن الخليفة إنما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأنصار..

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى..

وتفاقمت الفتنة، وأحاط الثائرون ببيت عثمان.. لا يقنعون في هذه الكرة إلا أن يعتزل، أو يسلمهم مروان بن الحكم، أو يعزلوه عنوة.

وجاء في رواية «شداد بن أوس» أن علياً رضي الله عنه، خرج من منزله يومئذ معتمداً بعمامة رسول الله متقدلاً سيفه، أمامة الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوا، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه على.. وقال بعد تمهيد وجيئ: «لا أرى القوم إلا قاتلك، فمرنا فلتقاتل». فقال الخليفة: «أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً، وأقر أن لي عليه حقاً، وأن يهريق في سببي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه في» فأعاد على القول، فأعاد عليه هذا الجواب.. ثم خرج من عنده إلى المسجد. وحضرت الصلاة فنادوه: «يا أبا الحسن. تقدم فصل بالناس» فقال: «لا أصلى بكم والإمام محصور، ولكن أصلى وحدي»، ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله، وترك ابنيه مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة؛ ليعلم الثوار أنهم معتدلون على كل ذي خطر في الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء.. عساهם إن علموا ذلك أن يتهيروا المركب، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه.

إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة فتسورو الدار وولغوا في دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه.

* * *

وللإفاضة في مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل، مكان غير هذا المكان، وكتاب غير هذا الكتاب..

فإنما نحن في صدد الموقف الذي وقفه علىَ من هذه الجريمة، وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره.. وإنما يعنينا هنا أن نسأل: أكان عليه وزر في هذه الجريمة؟.. أكان في مقدوره عمل صالح يعمله لإنقاذ عثمان من هذا المصير؟..

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع في جوابه إلى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين.. فقد سال في الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذي لا رُؤْ فيه. ليس علينا هذا؛ لأننا نستطيع أن نعبره إلى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها، وفيها الغنى - ولو بعض الغنى - عن الإسهاب في السؤال والجواب..

فالحقيقة التي لا يطول فيها الريب، أن علياً رضي الله عنه لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه.

فقد كان معاوية والياً عزيزاً، له جند يرسله إلى الخليفة فيحميه في الشدة الالزمه وإن أباه، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن علىَ ولا لأحد من خصائه، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان إلى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة إلى مكة أو الشام، لو أراد.

وكان في وسع عثمان أن يرحل إلى مكة، وهي آمن له من المدينة، أو يرحل إلى الشام، وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة وتمرد الثوار في العصيان..

أما علىَ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالصاعب من كل جانب..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس.. كلما حيل بينها وبين الانطلاق.

كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجبته عن قلوب رعاياه.. ناصحاً الخليفة بإقصاء تلك البطانة، وتبدل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالإقلال عنها.

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث، كلما هجم الثوار على تلك البطانة، وهما بإقصائهما عنوة من جوار الخليفة.

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الإصلاح، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار.

ولم يكن في العالم الإسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاء من جانبيه كلما حاول الخلاص منها، ولا خلاص!

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقاء في كل خطوة من خطواته، أنه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الإصغاء إلى الرأي والعمل بالمشورة. وإنما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين إليه.. لا ينجو من إحدى جنائياته التي كان يجنيها على الحكومة والرعاية حتى يعود إلى الخليفة في الواقع في روعه أن علياً وإخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه، وإنه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم.. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة في دوامه..

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في إصلاح الأمر وقمع الفتنة، لم يكن على مدعواً ولا منظوراً إليه بعين الثقة والمودة.. بل كان المدعوون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه.. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص، وهم في جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم على وجمهرة الصحابة، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار.

قال لهم عثمان: «إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون.. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على»..

قال معاوية: «أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم، وأنا ضامن لك ما قبلى».

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته، ولا يريد أن يغضب أحداً من أصحاب الولايات في غير مصره..

وقال عبد الله بن عامر: «رأى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجهرهم في المغارب حتى يدخلوا لك.. فلا تكون همة أحدهم إلا نفسه...».

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها، ثم هو لا يبالى أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب.

وقال عبد الله بن سعد: «أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم».

رأى رجل يشتري الرضا بالرسوة، ويستبقى ما في يديه منها.

وقال عمرو بن العاص، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في ولاية يرجوها: «أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعترض أن تعدل.. فإن أبيت، فاعترض أن تعزل.. فإن أبيت، فاعترض وأمض قدماً»..

رأى رجل عينه على الخليفة وعيشه على الثوار، ولهذا بقى حتى تفرق المجتمعون.. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره: «والله يا أمير المؤمنين لأنك أعز على من ذلك.. ولكنني قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قوله فيثقو بي.. فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً»..

* * *

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان، ومن ورائهم مروان ابن الحكم يلزمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه، وفي مقدمتهم على وأخوانه.. ثم تفرق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله، وأمره بالتطبيق على من قبله..

فكان حيلة على في تلك المعضلة العصيبة جد قليلة، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة.

غير أنه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين، معصوب بالتبعتين، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة، يتخطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه.. فلقيهم أسوأ لقاء، وأنذرهم لئن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم، جزاء العصاة المفسدين في الأرض.

جاءوه مرة أخرى وحاجتهم ناهضة، ودليل التهمة التي يتهمن بها بطانة عثمان في أيديهم.. جاءوه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم إلى تولية العامل الذي يرضيهم، فلم تخدعه حاجتهم الناهضة، ولم يشأ أن يملأ لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه، وجعلهم متهمين مسؤولين بعد أن كانوا متهمين سائلين، فقال لهم: «وما الذي جمعكم في طريق واحد، وقد خرجم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة؟»..

* * *

وكانت حيرة علىٰ بين التقريب والإبعاد، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار.. فكان يوماً تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه، ويستدعي إليها تارة ليروع الناس عن مهاجمة الخليفة، فلما تكرر ذلك، قال لابن عباس الذي حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله في ينبع: «يا ابن عباس.. ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملأً ناضحاً بالغرب - أى الدلو - أقبل وأدبر.. بعث إلىٰ أن أخرج، ثم بعث إلىٰ أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إلىٰ أن أخرج.. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون أثماً»..

ثم بلغ السيل الزيبي، كما قال عثمان رضي الله عنه، فكتب إلىٰ علىٰ يذكر له ذلك ويقول: «إن أمر الناس ارتفع في شأنى فوق قدره.. وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمى، وطمع فيٰ من لا يدفع عن نفسه..

فإن كنت مأكلولاً فكن خيراً كـ **وَلَا فَأَدْرِكَنِي وَلِمَا أَمْزَقَ**
فعاد على، وجهد في إنقاذ الخليفة جهده، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواوه وابتلى به أطباؤه.. فكلهم يريد تغييرًا يأتي من قبل الغيب أو يأتي من قبل الآخرين، ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه، ولعل الخليفة لو شرع في التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر في النفوس ولغطت به الأفواه..

وعد الخليفة وعده الأخير.. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال.
وأحاطت به بطانته كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود، تنهاه أن ينجزه
وتخييفه من طمع الناس فيه، إن هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه.
وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول..
فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باستررضاً على الإعراض عن هذه البطانة،
ولم يكن أيسر على بطانته من إقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة
ضعيفة، فكان مروان يقول له: «والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل
من توبة تخوف عليها»..

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس، فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار..
كما قال لهم يوماً: «ما شأنكم قد اجتمعتم لأنكم جئتم لنهب، شاهت الوجوه..
جئتم تريدون أن تنزعوا ملکنا.. ارجعوا إلى منازلكم، فإنما والله ما نحن مغلوبين
على ما في أيدينا».

إذن بطلت الروية، ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ، ولا يؤتى لأحد
إذا هي بدأت أن يقف دون منتهاها.

* * *

هجم الثوار على باب الخليفة، فمنعهم الحسن بن عليٍّ وابن الزبير ومحمد بن
طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة..

واجتلدوا فمنعهم عثمان، وقال لهم: «أنتم في حلٍّ من نصرتى» وفتح الباب
ليمعن الجلاد حوله.. ثم قام رجل من أسلم ينادى عثمان أن يعتزل، فرمى كثير بن
الصلت الكندي بسهم فقتله، فجنّ جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان، وعثمان
فيأبى أن يسلمه ويقول لهم: «لم أكن لأقتل رجلاً نصرنى وأنتم تريدون قتلى»..
وعزّ على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحه، فاقتحموا الدار
من الدور التي حولها.. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد إحجام كثير.

لو لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة، لوقعت في لحظة غيرها لا يدرى
كيف تبدأ هي الأخرى.. فإنما هي بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل

مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين، ولا أكثر من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى، ومدافعين لا يضبطهم عنان..

ونقل الخبر إلى المسجد، وفيه على جالس في نحو عشرة من المصلين، فراغه منظر القادر وسأله: «ويحك ما وراءك؟» قال: «والله قد فرغ من الرجل» فصاح به: «تبأ لكم آخر الدهر..» وأسرع إلى دار الخليفة المقتول.. فلطم الحسن، وضرب الحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه: «كيف قتل أمير المؤمنين، وأنتما على الباب؟» فأجاب طلحة: «لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل».

* * *

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه: «بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب، يلتمسون من يجيئهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحوذون على علىٰ وهو يهرب إلى الحيطان^(١)، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيئهم، فقالوا فيما بينهم: لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة. فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا: إنك من أهل الشورى. فلم يقبل منهم، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحارروا في أمرهم. ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أهصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم.. فرجعوا إلى علىٰ فألحوذوا عليه، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وببايعه الناس.. وكلهم يقول: لا يصلح لها إلا علىٰ، فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء. فقال قائل: «إننا لله وإنا إليه راجعون»، ثم قال الزبير: «إنما بايعت علياً واللنج على عنقى والسلام..».

وهذا الخبر على وجازته، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان.. وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير، اللذان أعلنا الحرب على علىٰ بعد ذلك.. فقد كانا يمهدان لها في حياة عثمان، ويحسبان أن قريشاً قد أجمعوا أمرها إلا يتولاها هاشمي، وأن علياً وشيك أن يزداد عنها بعد عثمان كما زيد عنها من قبله، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تؤول الخلافة إلى

(١) البساتين.

واحد من هذين.. أو إلى عبد الله بن الزبير؛ لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج اختها أسماء، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهما مدعاة أمل كبير في النجاح..

على أن الرأي هنا لم يكن رأي قريش، ولا رأي بنى هاشم.. فلو أن عثمان مات حتف أنفه، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة ل الخليفة غير على بن أبي طالب، وجاز أن يختلف بنو هاشم.. فلا يجتمع لهم رأي على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة، وهم: عقيل، وعلى، وابن عباس.

* * *

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تنشد رجلها دون غيره ولا محيط لها عنه.. فإن ترددت أيام، فذاك هو التردد العارض الذي يرد على الخاطر لا محالة، قبل التوافق على رأي جازم.. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تتجه إليه وحده على الرغم منها.

فطلحة والزبير، كانوا يشبهان عثمان في كثير مما أخذه عليه المترججون في الدين، وتمرد له الفقراء المحرومون.. كانوا يخوضان في المال، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنة الناقمين المتزمتين، فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم.. فما هم بواجديه في غير على بن أبي طالب، وقد قال بحق: «إن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر» ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العامة في انقيادهم إليه بغير رهبة ولا رغبة.. فقد كان أولئك الخاصة جمِيعاً على رأي العامة في حكومة عثمان وبطانته، وإن أخفى بعضهم لومه.. ولم يذهب بعضهم في اللوم مذهب الثوار في النزق وسفك الدماء..

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هي أولى الحقائق بالتوكيد والاستحضار، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد في خلافة على رضي الله عنه.. فإذا هي فهمت على وجهها، فكل ما عدتها مفهوم البواطن والظواهر منسق الموارد والمصادر.. وإذا هي لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبها، ويبحث الباحثون عن العلل والعواقب في غيرها فالعهد كله غامض مجهول، والموازين كلها منقوصة سواء في تقدير الرجال أو تقدير الأعمال، وجاز حينئذ أن يرمي على بالخطأ.. ولا خطأ عنده يصححه غيره في موضعه، وإنما هو حكم الموقف الذي

لا محيد عنه. وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم؛ لأنهم مضطرون إلى ورود هذا المورد.. فكرروا فيه أو طرقوه اعتسافاً بغير تفكير..

* * *

فلم تكن المسألة خلافاً بين على وعاویة على شيء واحد، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك.

ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين وعاليين متنافسين: أحدهما يتمرد ولا يستقر، والأخر يقبل الحكومة كما استجدها ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار.. أو هي كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت في على بن أبي طالب، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاویة بن أبي سفيان.

وليس موضع الجسم فيها أن ينتصر على.. فيحکم في مكان معاویة، أو ينتصر معاویة فيحکم في مكان على، بل موضع الجسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون إذا تغلب واحد منها على خصمه؟ أ تكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة الدنيوية؟.. أ تكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثروة الجديدة، كما توزعت بين الأمسار وتفرقت بين السراة والأجناد والأعوان؟

فلو أن علياً ملك الشام ومصر والعراق والجagan، وجرى في سياستها على سنة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكري البذخ والإسراف لبقيت المشكلة حيث كانت، ولم تغنم هزيمة معاویة إلا ريثما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل معاویة.

ولو أن معاویة ملك المدينة إلى جانب ملکه، وجرى في سياستها على سنة الحفاظ والقراء لما أرضاهما، ولا انقاد له أحد من أشياعه..

فالجسم حق الجسم هنا، إنما هو تغلب مبادئ الخلافة ولا حيلة لعلى ولا لمعاویة في علاج الأمر على غير هذا الوجه، لو جهد له جهد الطاقة..

* * *

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبساً متشابكاً في عهد عثمان كان نصف ملك ونصف خلافة، أو كان نصف زعامة دينية ونصف إمارة دينية..

فوجب أولاً أن يتضح الموقف بينهما، وأن يزول الالتباس عن فلق صريح.. ووجب وقد زال الالتباس، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان، أن يبلغ الخلاف مداه.. ولن يزال قائماً حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدئين وحكم من الحكمين، وليس لعلى أو معاوية على التخصيص.

هذه هي العلة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العلل الظاهرة.. وخليل بكل علة أخرى أن تكون تعلة موضوعة يظهر صاحبها غير ما يبطن، أو ينخدع في زعمه وهو غافل عن معناه..

خذ لذلك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على عليٍ ليطلبوه بدم عثمان، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع علىٌ عنه. وقد كان عثمان كثيراً ما يقول: «ويلي من طلحة.. أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي.. اللهم لا تمنعه به ولقه عواقب بغيه»..

واساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمي الدار، ويقود بعض الثائرين إلى الدور المجاورة ليهبطوا منها إلى دار عثمان، وهو حديث يفتقر إلى السند الوثيق، ولكنه ينم على ظن الناس بصداقية طلحة لل الخليفة المقتول.

وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام عليٍ في دم عثمان، وعلل اتهامه لعليٍ بتقصيره في القود من الثائرين.. وهم ألف يحملون السلاح، وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلمين، فماذا صنع معاوية بقاتل عثمان حين صار الملك إليه، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال؟ إنه اتبع علياً فيما صنع، وأبى أن يذكر الثار المقيم المبعد، وقد ذكروه به وألحفوا في تذكيره، ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهي تبكي: «وا أبناه» فلم تزد هذه الصيحة المثيرة إلا إصراراً على الإغضاء والإغفاء، وقال لها يعزيها: «يا ابنة أخي.. إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهما أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهرنا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره.. فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين...».

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسلیم الهین.. ولكن
عذر على فی بداية المحنۃ أعظم حجة، وأحق بالقبول..

* * *

أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص، وقد كان أول الناصحین لعثمان
بالاعتزال، بل كان يخطب عثمان ليسترضی الناس، وعمرو يصیح به من صفوف
المسجد: «اتق الله يا عثمان، فإنك قد رکبت أموراً وركبناها معك.. فتب إلى الله
نتب..» ثم ترك عثمان فی المدينة بین المؤتمرين به ومضى إلى فلسطین، وسمع
وهو يقول: «والله إنى كنت لألقى الراعی فأحرضه على عثمان».

فكل علة للثورة على خلافة على، فھی تعلل موضوع ينخدع به قائله أو
ينخدع به غيره.. إلا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها وخافیها
وصریحها ومکذوبها، وهي الخلاف بین مبادئ الخلافة الدينیة ومبادئ الدولة
الدنیویة، وضرورة الفصل بین هاتین الخطتين.. وإن كان فی ظاهره فصلا بین
رجلین..

فلما بُویع علیُ بالخلافة، كانت هذه البيعة إیذانا بانقسام الحلقة بین التین
للصراع الآخرين، أو كانت إیذانا باصطدام المتسابقین إی غایة لا بد من بلوغها..
ولن تخطر على البال غایة لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء المک
على النحو الذي تھیأت له عناصر النظام الاجتماعي الجديد.

فاما انتهاء المک في بدايته، فقد كان بعيداً.. بل كان عسیراً جداً في تلك الآونة
ـ كما يعسر اطفاء النار وهي تھب بالاشتعال..

واما انتهاء الخلافة فهو الذي كان، وهو الذي كان منظوراً أن يكون، ولن يكون
غيره بمنظور.. فمن الفضول لوم على شيء من الأشياء التي أفضت إلى هذه
الختمة، وهي محتمة ليس عنها محيد..

إذ لم يكن طبيعیاً أن يصمد الناس على سُنّة النبوة أكثر من جيل واحد، تثوب
بعده الطبائع إلى فطرتها من نشأة الخليقة الأولى، وقد يتافق كثیراً أن يغمرها
جلال النبوة أو جلال الخلافة النبوية، وهي في إبان النضال والحمیة الدينیة،
فتتنسی المطامع وتسهو عن الحزازات وتستعبد الألم والفداء إلى مدى الطاقة

الإنسانية، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الإنسانية بعد حين، وتفتر عن النهوض من قمة إلى قمة.. فتركت آخر الأمر إلى الأرض السواء حيث لا حافز ولا مستنهض، إلا مغاراة الطبيعة في مجاريها التي لا تشق عليها، وإن المصلحين ليفرضون غاية الرضا إذا هي حفظت من إصلاحهم عند ذلك وازعاً يهديها بعد ضلاله عمياً، ويردعها بعد جماع مرید، ويكتف من غلوائها ما كان من قبل منطلقًا بغير عنان..

وقد نظر النبي عليه السلام بعين الغيب إلى هذا المصير فقال: «الخلافة ثلاثة ثم يكون بعد ذلك الملك».. وأنباء بانقسام الفرق وتشعب الأهواء، وكأنما ينظر إلى ذلك بعينيه صلوات الله عليه.

* * *

واتبع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياساته في صدق الرأي وأمان العاقبة، أو أنها كانت كفيلة باجتناب المآذق التي ساقته الحوادث إليها.

فمن اللحظة الأولى، أخذ في تجديد قوى الخلافة الدينية التي لاقوا له بغيرها..

فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة، وتمردوا بالدنيا، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين..

ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوى الرحم، فصرفتها عن وجوهها التي جعلت لها من إصلاح المرافق وإغاثة المفترى إليها على شرعة الإنصاف والمساواة.

ورجع إلى خطة أبي بكر وعمر في تجنيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنبه الولايات، مخافة عليهم من غوايتها وإبعاداً لهم من دسائس الشيع والعصبيات.. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن، قال لهم: «بل تبقيان معى لأنس بكم»، وسأل ابن عباس: «ما ترى؟» فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة. قال على: «ويحك.. إن العراقيين بهما الرجال والأموال.. ومتى تملكا رقاب

الناس يستميلان السفيه بالطمع، ويضرّان الضعيف بالبلاء، ويقوّان على القوى بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ولو لا ما ظهر من حرصهما على الولاية كان لــى فيهما رأى».

نعم، إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه.. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضّب أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم في تأييده. وكانت تختلف عقیدته التي يدين بها نفسه وأقرب الناس إليه، وتختلف وعده وعقيدة الناس فيه.. ولن يكون مالكا غالباً بسياسة الملك على كل حال، فإن لم يكن خليفة فــما هو بشيء، وإن كان خليفة وملكاً فــهي خطة عثمان التي لم تستقم قــط على وجه من وجهيها ومصيرها معروــف، وإن كان خليفة ولا اختيار له في ذلك فــكل ما صــنع فهو الحكمة كــأحسن ما تراضــ له الحكمة، وهو الســداد كــأقرب ما يــتاح له الســداد.

وعلم أن قريشاً لا ينصرونه، فنقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة.. لأن قريشاً كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته، وقد تركه أقربهم إليه ورحل إلى معاوية طماعــ في رفده، أو كانوا أمويين وهم حــزب معاوية وأهل عشيرته وبيته، أو من تيم وهم حــزب طلحة، أو من عــدى وهم يؤثــرون عبد الله بن عمر بن الخطاب، أو من قــبائل أخرى، وهم كما قال: «قد هربوا إلى الأثرة».. فإذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولاعــ..

* * *

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كــله أو عليه.. فــكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية، وكان عليه جميع الولاية الذين انتفعوا في عــهد عثمان، وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة.. وحالــت الخلافة الجديدة بينهم وبين ماطمــعوا فيــه..

وعلى رأس هؤــلاء طلحة والزبير..

فحــشــدوا جــمــوعــهم إلى البصرة، وصــحبــتهم السيدة عائشة لأنــها كانت تــرغــب في خــلافــة طــلــحة.. لــقيــها ابن عــباس على مــقرــبة من المدينة وهو أمــير على الحجــ من

قبل عثمان، ولما يزل قائماً بالخلافة، فقلت له: يا بن عباس.. أنسدك الله فإنك قد أعطيت لساناً إزعيلاً - أى ماضياً - أن تخذل عن هذا الرجل - تعنى عثمان - وأن تشکك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجهت ورفعت لهم المنار، وتحلبو من البلدان لأمر قد جم. وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح.. فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه» فأجابها ابن عباس: «يأمه! لو حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا» أى على فقلت: «إيهَا عنك.. إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك».

فلما بويع علىَّ في المدينة. لم تكن من أنصاره ولا مع الباقيين علىَّ الحيدة بينه وبين خصومه.. ولعلها لم تنسَ بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الإفك التي قيل إنَّه أشار فيها بتطليقها، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بثار عثمان، وكانت هناك وقعة الجمل التي سميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهوجها.. فانتصر علىَّ، وقتل الزبير، ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في الحجاز والعراق..

علىَّ أنَّ هذا النصر العاجل، لم يخل من آفة تكرره وتنذر بالمخاوف التي يوشك أن يلقاها علىَّ في حربه لخصومه الباقيين بعد موت طلحة والزبير.. وأقوام معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة في جيش من المتمردين والمتذمرين.. فإنهم يستحمسون في عقيدتهم، وهي فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادى في اللدد وإعجال قائدتهم عن إنعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية..

فقد كان علىَّ يميل - كدأبه - إلى مفاتحة الخارجين عليه في المهادنة أو المصالحة، وكان معه جماعة السببية - أتباع عبد الله بن سبأ - وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه، ولكنهم لفريط غيرتهم ولددتهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء علىَّ خصومه، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هواة فيها.. فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب، قبل أن يفرغ علىَّ من حديث المهادنة والتقرير بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه..

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التي أعترته بها حماسة المتمردين والمتذمرين في جيشه، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى مني بالعثرة التي لا تقال...

وكان ذلك في وقعة صفين..

فإنه نظر بعد غلبه في العراق، فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة إلا جيش معاوية بالشام، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة، ومعنى بها خطة المسالمة والبدء بالإقناع.. فطالت المراسلة منه إلى معاوية، ومن معاوية إليه، وفي مثل واحد منها، ما يغنى عن كثير..

كتب إلى معاوية بعد وقعة الجمل، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة.. «سلام عليك.. أما بعد، فإن بيعتى بالمدينة لزمالك وأنت بالشام، لأنه بایعني الذين بایعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضى، وإن خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه، فإن أبي قاتلوك على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ماتولي، وأصلاه جهنم وسأط مصيرا، وإن طحة والزبير بایعني ثم نقضوا بيعتهما، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمين، فإن أحب الأمور إلى قبولك العافية، وقد أكثرت في قتلة عثمان، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمين.. ثم حاكمت القوم إلى حملتك وإيامهم على كتاب الله. وأما تلك التي تريدها - يعني الخلافة - فهي خدعة الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقالك دون هواك لتجدني أبراً قريش من دم عثمان، واعلم أنك من الطلاقاء^(١) الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة.. فبایعه، ولا قوة إلا بالله».

فرد عليه معاوية بما يلى:

(١) أطلق معاوية وأبوه من الأسر يوم فتح مكة.

«سلام عليك.. أما بعد، فلعمرى لو بایعك الذين ذكرت وأنت برىء من دم عثمان، لكت كأبى بكر وعمر وعثمان. ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان.. فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمرى ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبيين، إن كانوا بایعك فلم أبایعك أنا. فأما فضلك فى الإسلام وقرباتك من رسول الله ﷺ فلست أدفعه»..

ومن رد معاوية هذا، تبدو النية الواضحة فى فتح أبواب الخلاف واحداً بعد واحد.. كلما أغلق باب منها بقى من ورائه باب مفتوح، لا ينتهى الخلاف بإغلاقه. فتسليم قتلة عثمان لا يكفى، لأن علياً نفسه متهم بالإغراء والتخذيل، وبراءة عليٌّ من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى والنظر فى البيعة من جديد..

وشورى الحجازيين وال العراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام، وهم الحكام على الناس.. لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره..

ومن ثم، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول فى الصدور.

وزحف علىٌ من الكوفة إلى صفين، ووجد جيش معاوية على الماء.. فنحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال..

وبدأت العثرات من ثم فى كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال، فلا يتحفظ فريق من أنصاره للحرب حتى يثنىء فريق آخر يحرمنها ولا يقول بوجوبها، وتحاجز القوم نيفاً وثمانين فزعة.. وتصاولوا فى وقفات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا، وقلما استبك فيها الجيسان فى وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير، وحاقت الهزيمة بجيش معاوية وقيل إنه هم بالفرار.. وإذا بالمحاصف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام، وإذا بالعثرة الكبرى التى لا خطوة بعدها فى طريق فلاح.. فإن علياً نظر حوله، فإذا بجيشه يوشك أن يقتل فيما بينه نزاعاً على القتال أو إلقاء السلاح، وإن معاوية لفى غنى عن كفاح قوم

لا يتفقون على كفاحه.. فله منهم سيف مشروعة لنصرته، شاءوا أو لم يشاءوا،
وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه، وهيهات!

* * *

ولو كانت آفة الطاعة في جيش على، مقصورة على اجتهاد القراء والحفظ،
وتعجل الغلاة والمتمردين.. لكن في ذلك وحده ما يكفي لإفساد التدبير
واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله.. إذ لا يستغنى القائد في ميدان
الحرب، ولا في ميدان السياسة، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب
الطارئ والمناسبات.. فإذا كان في كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب
الفتاوى، وكان أصحاب الفتوى يفترقون عشرين وجهة في كل حركة من
حركات الجيش، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ.. وليس عجيباً بعد ذلك، أن
ينهزم في ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل.. بل العجيب أن يتماسك فترة
من الزمن - وإن قصرت - أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره إلى قيادة
موحدة ونية مجتمعة ومشينة مطاعة..

ولكن الآفة مع هذا، لم تكن كلها في اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة.. بل كان
في الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون
لعدوه كارهون لانتصاره.. فإن لم يكونوا كذلك، فالامر الذي لا شك فيه أنهم كانوا
يعملون - وهم عامدون وغير عامدين - شر ما يعمله الخائن الخبيث الذي يتحين
الفرص للعناد والشقاق، وإفشاء الخل والخذلان في أحرج الأوقات.

وأدهى من ذلك، أنه لم يكن قادراً على زجرهم والتنكيل بهم.. لأن الجيش الذي
يوجد فيه من يحرم حرب العدو، لن يعدم أناساً يحرمون حرب النصير المقيم على
ظاهر الطاعة، وليس لك بُيُّنة قاطعة عليه.

ومثل من ذلك أيضاً يغنى عن أمثال كثيرة، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر
سادات كندة وأخلاقهم أن ينصر حزباً على حزب، لو خلصت نيته ويرئت شيمته
من التقلب والغدر بأصحابه..

طمح هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي عليه السلام، فدعى قومه أن يتوجوه..
وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حاصر في حصنه أيام، وينس من الغلبة

فاستسلم.. على أن يصان دمه وبقية دم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة. فلما نشببت الفتنة بين علىٰ ومعاوية، كان هو من حزب علىٰ يتطلع للفرصة السانحة.

ثم زحف علىٰ رضي الله عنه إلى صفين، فكان الأشعث أول المندفعين إلى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء، وجاء علياً يقول: «يا أمير المؤمنين! أيمنعوا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيفوننا؟.. ولئن الزحف إليه.. فوالله لا أرجع أو أموت»

ولكنه عاد إلى المسالمة، بعد أن وضح النصر في ليلة الهرير، فخطب في قومه من كندة قائلاً:

«... قد رأيت يامعشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب.. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط.. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن تواقفتنا غداً إذن لفنيت العرب وضيغت الحرمات.. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفاً من الحرب، ولكنني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا»..

ثم ذهب إلى علىٰ رضي الله عنه بعد رفع المصاحف، فقال له: «ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى مادعوهم إليه من حكم القرآن.. فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل».

ولقى معاوية فسألته: «يامعاوية... لأى شيء رفعتم هذه المصاحف؟».

قال: «لنزمع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه.. تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدواه.. ثم نتبع ما اتفقا عليه».

فقال الأشعث: «هذا الحق!».

وعاد إلى علىٰ ينادي بالتحكيم، ويختار له هو وأنصاره رجلاً ينوب عن علىٰ، وعلىٰ لا يرضاه..

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجتربوا على أمير المؤمنين، فلم يبالوا أن يجدهم بالقول السيئ متذرين متوعدين:

«ياعلى! أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان. إنه عرض علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه.. والله لتفعلناها أو لنفعلناها بك».

والحوا عليه أن يرد قائد الأشتر التخفي من ساحة الحرب، وإلا اعتزلوه أو قتلوه..
فقبل التحكيم وهو كاره..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فقال الأشعث: «فإنما رضينا بأبي موسى الأشعري»

قال على: «إنه ليس لي بثقة.. قد فارقني وخذل الناس عنى، ثم هرب مني حتى أمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك».

قالوا: «لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر..»

قال: «فإنما أجعل الأشتر»

قال الأشعث - وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاعه من قبل - «وهل سعر الأرض غير الأشتر؟.. أو قال: وهل نحن إلا في حكم الأشتر!..»

فلما رأى إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال: «فقد أبىتم إلا أبا موسى؟»

قالوا: «نعم!».

قال: «فاصنعوا ما بدا لكم!».

* * *

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش على، لم يدع من وسعه شيئاً للتغلب حزب معاوية على حزبه، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذي يختاره نصيراً له مؤمناً بحقه وصحة رأيه. ولا طائل في البحث عن هذا الخذلان الصريح، أكان هو

الطعم في الملك بعد فشل على أم النعمة على الأشتراط النخعي في مكانته وبلاه، أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة.. فإنما النية الخبيثة ظاهرة وإن استترت العلة، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع لتغليل حزب معاوية وخذلان الحزب الذي هو فيه.

قال على يصف قسمته من الأنصار، وقسمته من النوازل والعثرات: «لو أحبني جبل لتهافت».

وقال يصف أنصاره: «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواهم، كلامكم يوهى الصم الصلاب، وفعلكم يطعم فيكم الأعداء.. ما عزّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. أعاليل بأعاليل دفاع ذى الدين المطول.. أى دار بعد داركم تمنعون؟.. ومع أى إمام بعدي تقاتلون؟.. المغدور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأطيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل^(١). أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطعم في نصركم، ولا أ وعد العدو بكم، ما بالكم؟.. ما دواوكم؟.. ما طبُّكم؟.. القوم رجال أمثالكم، أقولاً بغير علم؟.. وغفلة من غير ورع؟.. وطعموا في غير حق؟..».

وهي صيحة لا تصف إلا بعض ما يعانيه من حيرة، لا مخرج له منها في سياسة أصحابه. فإنه لم يفرغ من التحكم الذي أذعن له وهو كاره، حتى فوجئ بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنّه قبل ذلك التحكيم، وزعمواه قبولاً للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين، وهو عندهم كفر بواح، أولئك هم الخوارج الذين حاربوا بالسلاح، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذاك!

ثم اجتمع الحكمان بدوامة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون وسطاً بين العراق والشام. ولم يكن قرار الحكمين خافياً على من عرّفوا أباً موسى الأشعري وعمرو بن العاص فإن أباً موسى لم يكتم قط أن السلامة في اجتناب الفريقين والقعود عن القتال، فليس أيسر من إقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء. ثم يرجع الرأي إلى عمرو بن العاص في إقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التي ترضيه.

(١) الأفوق هو السهم المكسور في موضع الوتر، والنناصل العاري من النصل.

غير أن الدهاء من العرب، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبته الذي أنابه عنه.

ومن هؤلاء الدهاء المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة إلى يوم التحكيم، فلما اجتمع الحكمان علم أنها الجولة الأخيرة في الصراع.. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور، على سنة الدهاء من أمثاله، إذ يتنسمون الريح قبل هبوبها، ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها.. فلقي أبا موسى وعمرو بن العاص، ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول بالبال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا الإبطاء المريض.. فقال له وهو يرى اشتغال باله: «قد أتيتك بخبر الرجلين...».

قال معاوية: وما خبرهما؟..

قال المغيرة: «إنى خلوت بأبى موسى لأبلو ما عنده فقلت: ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء؟.. فقال: أولئك خيار الناس، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم وبطونهم من أموالهم. فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص، فقلت: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب؟.. فقال: أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا»..

ثم عقب المغيرة قائلا: «أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجعلها لرجل لم يشهد، وأحسب هواه في عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه»..».

وقد أحس المغيرة حزره - نقط الحرف بالحرف - في تقدير نية الرجلين، فإنهما ما اجتمعا هنئه حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له: «يا عمرو!.. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله؟».

قال: «وما هو؟..»

قال: «نولى عبد الله بن عمر، فإنه لم يدخل في نفسه شيء من هذه الحروب..» فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقي في روع صاحبه أنه يريد معاوية، ثم عاد يسأله: «فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحته؟»

فأوشك أبو موسى أن يجيئه لولا أنه قال: «إن ابنك رجل صدق، ولكنك غمسته في هذه الحروب غمساً».

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه في كل لقاء، وطفقا يبدآن منه ويعيدهان إليه بعد كل جدال، حتى وقر في خلد الأشعري أن خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره، فتواعدا إلى يوم يعلنان فيه هذا القرار..

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد: «..... أيها الناس، إننا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن خلع علياً ومعاوية، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فليولوا منهم من أحبوا عليهم، وإنى قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً»

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد: «... إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعته، وأثبت صاحبى معاوية، فإنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه».

فغضب أبو موسى، وصاح به: «مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهاه أو تتركه يلهاه...».

فابتسم عمرو، وهو يقول: «إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً».

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه..

وانتهت المأساة بهذه المهزلة، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة.

وبيان أن اجتماع الحكمين لم يفض إلى اتفاق بين الحكمين، فعاد الخلاف إلى مكانه عليه..

غير أنه استشرى واحتمم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم.

فقد اجتمعوا وأبرموا فيما بينهم «... إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله، وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما، وحكموا الرجال في دينهم ونحن على

الشخوص من بين أظهارهم، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا
الخلق».

وخرجوا وعلى يأبى قتالهم حتى يئس من توبتهم، ولقيهم بالجيش، فأشأر أن
يلقاهم مناقشا قبل أن يلقاهم مقاتلا، واقتصر عليهم أن يخرجوا إليه رجلا منهم
يرضونه، يسأله ويجيبه ويتوب إن لزمه الحاجة ويتوبوا إن لزمتهم. فأخرجوا إليه
إمامهم عبد الله بن الكواء.

قال على: «مالذى نقمتم على بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معى وطاعتكم
لى، فهلا برئتم منى يوم الجمل؟»..

قال ابن الكواء: «لم يكن هناك تحكيم».

قال على: «يا بن الكواء ويحك.. أنا أهدى أم رسول الله ﷺ؟».

قال ابن الكواء: «بل رسول الله ﷺ».

قال على: «فما سمعت قول الله عز وجل: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون..»

قال: «إن ذلك احتجاج عليهم، وأنت شكت في نفسك حين رضيت بالحكمين،
فنحن أخرى أن نشك فيك».

قال: «وإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَبْعَثُهُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾.

قال ابن الكواء: «ذلك أيضا احتجاج منه عليهم». ثم قال بعد كلام طويل من
قبيل كلامه هذا: «إنك صادق في جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت
الحكمين».

قال على: «ويحك يا بن الكواء.. إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا»..

قال ابن الكواء: «فإن أبا موسى كان كافرا».

قال على: «متى كفر؟.. أحين بعثته أم حين حكم؟».

قال ابن الكواء: «بل حين حكم».

قال على: «أفلا ترى أنى بعثته مسلماً فكفر فى قوله بعد أن بعثته.. أرأيت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهם إلى الله^(١) فدعاهم إلى غيره، هل كان على رسول الله ﷺ من ذلك شيء؟». قال: «لا».

قال: «ويحك.. فما كان على أن ضل أبو موسى؟ أفيحل لكم بضلاله أبي موسى أن تضعوا سيفكم على عواتقكم فتعرضوا بها الناس؟».

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بذل لعلى في مجال نقاش، فكفواه عن الكلام لأنهم آمنوا بصدق على في حجته وقصده، لو لا أنهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقدّر أمثالهم من المتهوسيين الذي يجدون في المضي مع العناد لذة يستمرئونها من الحق والمعرفة.. فمردوا على الشقاوة، وأصرروا على تكفير على وأصحابه، وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار..

* * *

واستبقى على بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة.. فرفع في الساحة راية ضم إليها ألفي رجل ونادى: «من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن».

ثم قال لأصحابه: «لا تبدئوهم بالقتال حتى يبدئوكم» فصالح الخوارج صيحتهم: «لا حكم إلا لله وإن كره المشركون» وهجموا هجمة رجل واحد.. وتلقاهم على وأصحابه لقاء من نفد صبره ووغر صدره. فما هي إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج، ويقى منهم نحو أربعين ألفاً أصيروا بجرح وعجزوا عن القتال، فأمر بهم على فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركونه بعلاج.

* * *

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية..

فتتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى، كما تصدى له في كل فرصة سانحة للغلبة، وقال له على مسمع من الناس: «يا أمير المؤمنين.. نفذت

(١) وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام؛ إذ أوفد نهاراً الرجال ليهدى قوم مسلمة فانقلب هناك مبشر بدينه.

نبالنا، وكلت سيفنا، ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا إلى مقرنا لنسعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا، فإنه أوفى لنا على عدونا»

وتسلل الجنادل من معسكلهم، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم، وأيقن على أن القوم مارقون من يده، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه، وأعانه طلاب المنافع عامدين، وأعانه الخوارج غير عامدين، فحاربوا علياً ولم يحاربوه، وطلبوه التوبة من علىٰ ولم يطلبوها منه، واستمر هو في إنفاذ البعثة والسرايا إلى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعماهه موجودة أو سامة. فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة، ويقى علىٰ في أرباض الكوفة يائساً منعزلأ عن الناس، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه، ويوجس شراً من أقرب المقربين إليه، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام، ويكتفى السيف عن هذه الأمة، فلا نزاع ولا قتال..

* * *

وبقيت في كنانة الأقدار مصادفة من هذه المصادرات التي يخيل إليك، وأنت تتعقبها، أنها تجمعت منذ الأبد لبيو على بنقائض الموقف كله، ويظفر خصوصه بتوفيقات الموقف كله.. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة، ويقتل زميلاه فيها: معاوية، وعمرو بن العاص.

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي، وهم من غلاة الخوارج المورثين، فتذاكروا القتلى من فريقهم، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار - أو أئمة الضلالة في رأيهم - وهم: على بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص.

فقال ابن ملجم: «أنا أكفيكم على بن أبي طالب»

وقال البرك: «أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان»

وقال عمرو بن بكر: «أنا أكفيكم عمرو بن العاص»

وان ضغينة الثأر لحافز أى حافز..

وان تهوس العقيدة لمثير أى مثير

وكان للمتأمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين، يغنى عن مزيد من التحرير على القتل والانتقام..

ولكن المصادفة العجيبة هي التي شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم بحافز ثالث لعله يمضى حين ينبو هذان الحافزان الماضيان، وهو حافز من الغرام الظامن لا يرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم.

فإن المرء قد ينبع ثائرة الحقد، وقد يماري نفسه فيما تفرضه العقيدة.. ولكنه إذا كان عاشقا مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه، فهو مأسور زمامه في يدي غيره، وليس في يديه.

* * *

كان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرياب، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها في معركة الخوارج، وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية، وتدين بمذهب قومها فوق ما في جوانحها من لوعة الحزن على ذويها، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجا إلا أن يشفى لوعتها. قال: «وما يشفيك؟» قالت: «ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، وقتل على بن أبي طالب».

قال: «أما قتل على فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدينني...».

قالت: «بل التمس غرته.. فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسى وبهناك العيش معى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها».

وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة، يقتل كل منهم صاحبه في ذلك الموعد..

فأما عمرو بن العاص، فقد اشتكي بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلّى بالناس. فضررته عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله. فقال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة، وأمر بقتله..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله، وقد خرج الغداة للصلوة فووقيعت الضربة على أليته.. وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفى منها إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل. فجزع معاوية من النار، ورضي انتقطاع النسل، وهو يقول: «فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى، وأمر بالرجل فقتل لحيته»..

وأما على، فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم، وهو خارج للصلوة، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم: «يابنى عبد المطلب.. لا ألقينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين.. ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى»..

«انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربيه.. ولا تمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور».

* * *

وهذه خاتمة فاجعة، ننظر فى كل فرض من فروضها فلاتخليةا من المصادفة السيئة التى لا تلقى تبعتها على أحد بعينه.

فمهما يقل القائلون إن علياً إنما أصيب لأنه كان لا يتقوى أحداً، ولا يخرج إلى المسجد بحرس، فالواقع أن المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق فى عثرات الحظ بينه وبين زمليه اللذين سيقا معه إلى مكيدة واحدة.. فخرجا منها بحظين غير حظه، فإن ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج إلى المسجد محروساً، ولكنه نجا لأنه لزم بيته فى تلك الليلة، ومات صاحب شرطته الذى خرج فى مكانه. ولم ينج معاوية لأنه خرج محروساً، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت إصابته غير قاتلة.

فهى المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علة من علل التاريخ، ترجع بنا فى آخر الأمر إلى علل المصادفات التى لا تقبل التعليل.

وشيء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها..

وذلك هو النسيج الإنسانى النابض الذى يتخلل حياة علىٰ فى لحمتها وسداها، وفي تفصيل أجزائها وجملة فحواها، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة

النبيلة إلا وهي معرض حاصل للعواطف الإنسانية برمتها، تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماعة، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم.. وذلك الاشتباك الذي يخلقه الشعراء خلقا في القصص والملاحم، فلا يحکمونه بعض إحكام الواقع الملموس في سيرة الإمام. وقد أسلفنا في صدر هذا الكتاب أنها سيرة تلامس النفس الإنسانية في شتى نواحيها: تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء. فإذا اتبعت السيرة بالخاتمة، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الإنسانية التي تنسجها القرائح لاقتناص الشعور وتقرير الخيال تفقد في هذه الخاتمة الفاجعة؟ أى باعث من باعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا في كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها؟ يأس الكريم المغلوب وجراة المحتال الغالب. وغرام المتهوس المجنون، وأرياحية القتيل الموصى بمن اعتدى عليه، وحقد المرأة وخداع الجمال، وزيف العقيدة، واستواء الإيمان، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموارد واللهم الدائمة في خاتمة حياة تسع ألف حياة..

* * *

وهذه مزية على بين خلفاء الإسلام قاطبة.. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادرات في الأجيال الطوال، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها في كل جيل..

تلك حياة حى.. وذلك مصرع شهيد..

سياسته



تسري في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم، ويتوارثها جيل عن جيل، ويتخذها السامعون قضية مسلمة، مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها، وهي في الواقع لم ت تعرض قط على البحث والاستدلال، ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال، ثم صقلتها الألسنة فعزّ عليه بعد صقلها أن تردها إلى الهرج والإهمال..

كل أولئك من لغو الشعوب.. وللشعوب بداعه تقصير دونها بداعه الغواصين من الأفراد، ولكنها إذا لغت فشوطها في اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم إن على بن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة!

وقد شاع هذا الرأي في عصر على بين أصحابه، كما شاع بين أعدائه، وعزز القول به أنه خالف الدهاء من العرب فيما أشاروا به عليه، وأنه لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه، فكان من الطبيعي أن يقال إنه مني بالفشل لأنّه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاء، وأنه هو لم يكن من أصحاب الخداع الناجحة في الحرب أو السياسة..

وقد يكون كذلك أو لا يكون، فسنرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أي هذين القولين أدنى إلى الصواب..

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه، في عصره أو بعد عصره، أن يسأل نفسه: أكان في وسع على أن يصنع غير ما صنع؟..

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك: هل استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة؟.. وهل من المحقق أنه كان يفضي بصنعيه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها؟..

لم نعرف أحداً من ناقديه، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك.. مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأي مخالفيه، سواء كانوا من الدهاء أو غير الدهاء..

والذى يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأى الذى سبق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم، لو أنه وضع فى موضع العمل والإنجاز وخرج من حيز النصيحة والمشورة.

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاء، أو خالفه فيها نقدة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطئ، ولم ينظروا إليها نظرة الريان في غمرة العاصف والأمواج..

فالماخذ التي من هذا القبيل، يمكن أن تنحصر في المسائل التالية، وهي:

- ١ - عزل معاوية
- ٢ - معاملة طلحة والزبير
- ٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر
- ٤ - تسلیم قتلة عثمان
- ٥ - قبول التحكيم
- ٦ - قبول الخلافة

وهي كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين.. فإن لم يكن خلاف وكان جزم قاطع... فهو على ما نعتقد أقرب إلى رأى على وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه..

* * *

قيل في مسألة معاوية إن علياً رضي الله عنه خالف فيها رأى المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمي، وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير..

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له: «إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأى اليوم تحرز به ما في غد، وإن الضياع اليوم تضييع به ما في غد. أقرر

معاوية على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أنتك طاعتكم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت»

فأبى وقال: «لا أدهن في ديني، ولا أعطى الدنيا في أمري»
قال المغيرة: «إإن كنت أبيت على فائز من شئت واترك معاوية، فإن في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يستمع له ولد حجة في إثباته.. إذ كان عمر قد ولاد الشام»..

فقال على: «لا والله.. لا أستعمل معاوية يومين»

* * *

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له، لما علم برأي المغيرة: «إنه نصحك»..
قال على: «ولم نصحني؟»

قال: «لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولئ هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شوري، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق..

ثم مضت الأيام، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الإمام..
فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاد، وكان زياد من جلسائه

فقال له الإمام: «تسير»

قال زياد: «لأى شيء؟»

قال: «تغزو الشام»

فقال زياد: «الأناة والرفق أمثل، واستشهد بقول الشاعر:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
فتمثل على:

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميأ تجتنب المظالم

فخرج زياد إلى الناس وهم يسألونه: «ما وراءك؟» فأجابهم: «هو السيف ياقوم!»..

* * *

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة، وذلك ما عمل به الإمام وارتضاه.. فرأيهما على خطأ وأيهما على صواب؟..

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولاً: هل كان الإمام مستطيناً أن يقر معاوية فى عمله بالشام؟..

وأن نعلم بعد هذا: هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه استطاع؟..
وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيناً أن يقر معاوية فى عمله لسبعين: أولهما أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة، وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المأخذ على حكومة عثمان فى رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة، وكثيراً ما اعتذر عثمان من إقرار معاوية بأنه من ولة عمر بن الخطاب.. فكان على لا يقبل هذا العذر ولا يزال يقول له: «إنه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه «يرفأ».. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف»

فإذا أقره ولى الخلافة، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياعه؟ ألا يقولون إنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس؟

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول، فهل في وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد؟

إن هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير في وقعة الجمل، فبدعوا بالهجوم قبل أن يؤمنوا به.. بل هجموا على أهل البصرة وهم مأمورون بالهدنة والأناة. فكيف تراهم يهدعون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على حالها، وأن الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبدل فيه؟..

وندع هذا وننزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع.. فهل هو على هذا الzعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟

كلا.. على الأرجح، بل على الرجحان الذي هو في حكم التحقيق.. لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال يظل واليا طول حياته، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول

إلى ما وراءه، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤمن بها ويدعمها له ولأبنائه من بعده.. فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعد للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة في حينها.. فـأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها، وإلا ضاع منه الملك وتعرض يوماً من الأيام لضياع الولاية. وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد.. فـماذا تراه صانعاً إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وبرئته إياه من دم عثمان؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل إلا رجاء..

وإذا كان هذا موقف على معاوية عند مقتل عثمان، فـماذا كان على مستفيداً من إقراره في عمله وتغريض نفسه لغضب أنصاره..

لقد كان معاوية أخرى أن يستفيد بهذا من على، لأنـه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله في الولاية، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على على بين أنصاره. فـتعلو حجته من حيث تسقط حجة الإمام..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيته أن صواب الإمام في مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه.. فإن لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح، فأقل ما يقال إن الصواب عنده وعندـهم سواء..

* * *

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسـر من التقدير في مسألة معاوية وولاية عثمان على الأنصار:

لأنـ الرأـي الذي عمل به الإمام معـروف، والأـراء التي تـخالفـه لا تـعدـو واحدـاً من ثلاثة: كلـها أـغمـضـ عـاقـبةـ، وأـقلـ سـلامـةـ، وأـضعفـ ضـمانـاـ من رـأـيـهـ الذـيـ اـرـتضـاهـ..

فالرأـيـ الأولـ أنـ يـولـيهـماـ العـرـاقـ وـالـيـمـنـ أوـ الـبـصـرـةـ وـالـكـوـفـةـ، وـكـانـ عـبـدـ اللهـ بنـ عـبـاسـ عـلـىـ هـذـاـ الرـأـيـ فـأـنـكـرـهـ الإـمـامـ لـأـنـ «ـالـعـرـاقـيـنـ بـهـماـ الرـجـالـ وـالـأـمـوـالـ، وـمـتـىـ تـمـلـكـاـ رـقـابـ النـاسـ يـسـتـمـيـلـانـ السـفـيـهـ بـالـطـمـعـ وـيـضـرـيـانـ الـضـعـيفـ بـالـبـلـاءـ، وـيـقـوـيـانـ

على القوى بالسلطان...» ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية، وقد استفادا من إقامة الإمام لهما في الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة، ويثيران بها أنصاره عليه.

والرأي الثاني أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل، وهو لا ينجح في الواقع بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر.. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة، ومن حرمته لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية، أو يبقى في المدينة على ضغينة مستوره..

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة إلى البصرة، فوقع الخلاف في عسكرهما على من يصلى بالناس، ولو لا سعي السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متناقضين..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين، فانهزموا بعد أيام قليلة، وخرج الإمام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة.

والرأي الثالث أن يعتقلهما أسيرين، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألهما الإذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشننا الغارة عليه..

والواقع أن الإمام قد استرب بما نوياه حين سأله الإذن بالسفر إلى مكة.. فقال لهما: «ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة!»

ولكنه لم يحبسهما، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم. وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر، وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا، ولو أنه حبسهم جميعاً لما تنسى له ذلك بغير سلطان قاهر، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم. وما أكثر المتحرجين في عسكر الإمام من حبس الأبراء بغير برهان؟.. لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوا ويشكوا بعض أنصاره في عدله وحسن مجامعته لهم.

* * *

وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء.. لم يكن الجيش الذى خرج من مكة إلى البصرة ببيان من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير، فقد كانت «العثمانية» في مكة حزباً موقور العدد والمال.. فهى مسألة تلتبس فيها الطرائق، ولا يسعنا أن نجزم بطريقه منها أسلم ولا أضمن عاقبته من الطريقة التي سلكها الإمام وخرج منها غالباً على الحجاز والعراق، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها..

* * *

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر، فهى غلطة من غلطات الإمام يقل الخلاف فيها..

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها، وكان كفواً لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والمداورة، فعزله الإمام لأنه شك فيه.. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام، وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره.

وكان أصحابه على يحرضونه على عزله، وهو يستمهمهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه.. فعزله وهو غير واثق من التهمة، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة.

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة، فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاريين إلى مصر من دولة على في الحجاز.

ولما بايع المصريون علياً على يديه، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون، وقالوا له: «أمهلنا حتى يتبين لنا الأم» فأمهلهم وتركهم وادعى حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية.

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على الإمام، فكتب إليه كلاماً لا إلى الرفض ولا إلى القبول، ويصبح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغاً لمعاوية أو يحسبه متربقاً لساعة الفصل بين الخصمين.. إذ كان ختام كتابه إليه: «.... أما

متابعتك فأنظر فيها، وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف فلا يأتيك شيء من قبلى تكرهه، حتى نرى وترى»

ثم اشتد فى وعيده حين أندره معاوية فقال: «أما قولك إنى مالئ عليك مصر خيلا ورجلًا، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد والسلام»..

وأراد الإمام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية، فأمر قيساً أن يحارب المخالفين عن البيعة.. فلم يفعل وكتب إليه: «.... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم»..

فتعاظم شك الإمام وأصحابه، وكثير المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى المدينة.. فعزله واستقدمه، وتبيّن بعد ذلك أنه أشار بالرأى الصواب، وأن ترك المخالفين عن البيعة في عزلتهم خير من التعجيل بحربيهم، لأنهم هزموا محمد بن أبي بكر والى مصر الجديد، وجروا عليه من كان يصانعه ويواлиه.. غلطة لا ريب فيها..

وإن كان جائزًا مع هذا ألا يهزموا قيساً، لو كان حاربهم، كما هزموا خلفه الذي لا يعدله في الحزم والخبرة.

ولكننا نبالغ على كل حال، إذا علقنا بها الجرائر التي أصابت الإمام من بعدها، وزعمتنا أنه تقاعد عن إصلاحها في حينها، كما تصلح الغلطات التي يساق إليها الساسة.. فإنما هي غلطة من تلکم الغلطات التي تضير والحوادث مولية.. وقلما تضير أو تعز على الإصلاح والحوادث مؤاتية. وقد عرف الإمام خطأه فقال لصحابه: «إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذي عزلناه والأشر، وأنفذ الأشر إلى مصر ليعيدها إلى طاعته فمات في الطريق..

* * *

والأقوال في موت الأشر هذه الميّة الباغنة كثيرة، منها أنه مات غيلة وأن معاوية أغرى به من دس له السم في عسل.. شريه وهو على حدود مصر فقضى نحبه، وروى أن معاوية قال حين بلغه موته: «إن لله جنوداً من العسل»..

فإن صحت الرواية، واعتقد من اعتقاد أنها من دلائل السياسة القوية عند معاوية.. فمما لا شك فيه أن موت الأشتر، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الإمام، وأنه لا لوم على سياساته في اغتياله، إن كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحمدونها.

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية ندم على تقرير قيس من جوار على، وقال: «لو أمدته بمائة ألف لكانوا أهون على من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامة أموره، ولا ينحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها..

ولكن الذي حذر معاوية لم يكن، والذي حذر على كان..

وإذا ولت الحوادث، فقد ينفع الخطأ وقد يضير الصواب..

* * *

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلا بين الإمام وخصومه، فإذا هي أقصرها جدلا من براءة المقصود من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه، مع أن القود لا يكون إلا من ولى الأمر المعترف له بإقامة الحدود.

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة، ومن هو الذي يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد..

وأعتقدوا بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطيع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، وأغفوا أنفسهم منه - وهم ولادة الدم كما يقولون - يوم قبضوا على عنان الحكم وثبتت السكينة إلى جميع الأمصار.

وقد تحدث الإمام مرة في أمر القود من قتلة عثمان، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم «كلهم قتلة عثمان» فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين.

وكان الإمام يقول لمن طلبوه منه إقامة الحدود: «إنى لست أجهل ما تعلمون، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكونهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبادانكم

و ثابت إليهم أغاربكم، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعًا لقدرة
على شيءٍ مما تريدون؟...»

ومن قوله لهم: «... إن هذا الأمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة، وإن الناس من
هذا الأمر الذي تطلبون على أمواله: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى مالاً ترون،
وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدا الناس وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق
فاهدءوا عنى، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا»

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من
العاديين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا. يؤيدون ولـى الأمر حتى
يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف..

غير أنهم طلبوا مالاً يجـاب، وما لم يكن من حقـهم أن يطلبـوه، وليس بينـهم أـعـفـ
ولا أـتقـىـ من السيدة عائـشـةـ رضـىـ اللـهـ عـنـهـاـ. وـقـدـ روـىـ عـنـهـاـ أـنـهـ قـالـتـ لـمـ أـخـبـرـتـ
بـبـيـعـةـ عـلـىـ وـهـىـ خـارـجـةـ مـنـ مـكـةـ: «لـيـتـ هـذـهـ اـنـطـبـقـتـ عـلـىـ هـذـهـ إـنـ تـمـ الـأـمـرـ لـعـلـىـ»
تـشـيرـ إـلـىـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ.. ثـمـ عـادـتـ إـلـىـ مـكـةـ وـهـىـ تـقـولـ: «قـتـلـ وـالـلـهـ عـثـمـانـ
مـظـلـومـاـ، وـالـلـهـ لـأـطـلـبـنـ بـدـمـهـ»..

فـقـيلـ لـهـ: «وـلـمـ؟.. وـالـلـهـ إـنـ أـوـلـ مـنـ أـثـارـ النـاسـ عـلـيـهـ لـأـنـتـ.. وـلـقـدـ كـنـتـ تـقـولـينـ:
اقـتـلـواـ «نـعـثـلـاـ»ـ فـقـدـ كـفـرـ»

فـقـالـتـ: «إـنـهـ اـسـتـابـوـهـ ثـمـ قـتـلـوـهـ، وـقـدـ قـلـتـ وـقـالـوـاـ، وـقـوـلـىـ الـيـوـمـ خـيـرـ مـنـ قـوـلـىـ
الـأـوـلـ»

وـنـاهـيـكـ بـالـسـيـدـةـ عـائـشـةـ فـىـ فـضـلـهـ وـمـكـانـتـهـ وـتـقـواـهـ، فـقـلـ مـاـ شـتـتـ فـىـ
المـطـالـبـيـنـ غـيـرـهـاـ بـهـذـاـ الـمـطـلـبـ الـذـىـ لـاـ يـجـابـ
وـالـرـضـاـ، أـوـ الـإـرـضـاءـ، مـسـتـحـيلـ حـيـنـ يـكـونـ الـطـلـبـ مـنـ هـذـاـ الـقـبـيلـ

* * *

أـمـاـ الـذـيـنـ لـامـوـهـ لـقـبـولـهـ التـحـكـيمـ، فـيـخـيـلـ إـلـيـنـاـ مـنـ عـجـلـتـهـمـ إـلـىـ اللـوـمـ أـنـهـ كـانـواـ
أـوـلـ مـنـ يـلـوـمـهـ وـيـفـرـطـ فـىـ لـوـمـهـ لـوـ أـنـهـ رـفـضـ التـحـكـيمـ وـأـصـرـ عـلـىـ رـفـضـهـ، لـأـنـهـ لـمـ
يـقـبـلـ التـحـكـيمـ وـلـهـ مـنـدـوـحـةـ عـنـهـ..

ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب، ووشك القتال في عسكرهم خلافاً بين من يقبلونه ويرتضونه.

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفاً وثمانين فزعة للقتال لشكهم في وجوبه وذهاب بعضهم إلى تحريمها.

ويعد أن توعدوه بقتلة كقتلة عثمان، وأحاطوا به يلحون عليه في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصداً في ساحة الحرب على أمل في النصر القريب..

والمؤرخون الذين صويبوا رأيه في التحكيم وخطئوه في قبول أبي موسى الأشعري، على علمه بضعفه وتردداته، ينسون أن أبي موسى كان مفروضاً عليه، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة.. وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو أن العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس.. فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليه في الخلافة، وقصاري ما هناك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه. وإن توهם بعضهم أن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه، والجنوح به إلى حزب الإمام، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية.. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم، وحوله المؤيدون والمتربكون للمطامع واللبايات يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه إخفاقه.

وما أسهل المخرج الشرعي الذي يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين؟.. لقد كان النبي عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر إنه «قتله الفتنة الbagyia» فلما قتله جند معاوية، وخافت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغى بشهادة الحديث الشريف قال قائل منهم: إنما قتله من جاء به إلى الحرب.. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب، وقبلوه جميعاً غير مستثنى منهم رجل واحد.. أفلأ يقبلون تفسيراً مثله إذا تحول ابن العاص، وأفتقى الحكمان بخلع معاوية ومبايضة الإمام؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذي أذعن له الإمام على كره منه، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بيته وبين غيره في عقباه

* * *

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التي واجهها الإمام، ولم يكن عسيراً عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوخ الفتنة والشقاق بين الأنصار كلها.. وشيوخهما قبل ذلك بين جنده الذي يعول عليه.

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل.. وكل ما هناك من أسباب ترجيحاً أنها أسلم للإمام وأمن لسربه وأهدأ لباليه، وهو أمر مشكوك فيه.. على ما في طلب السلامة بين هذه الزعازع من أثره، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل.

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلاً كعلى بن أبي طالب، يترك وادعاً في سربه بين هذه الزعازع التي تحيط بالدولة الإسلامية في عصره..

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يغفوه من الدسسة والإيذاء، لاعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر الدائم، وأنه ما عاش فهو علم منصوب يفنيه كل ساخته وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا. وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسموماً في عهد معاوية خوفاً من لياذ الناس به ورجعتهم إليه. وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد.. وما أعظم البوء في المكانة والحساب بينهما وبين الإمام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال.

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى، إذا رجعنا إلى أقوال أبطال الميدان نفسه في علل النصر والهزيمة، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه.

فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه في الدهاء، فيقول: «... والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفرج، ولو لا كراهية الغدر لكونك من أدهى الناس...»

أو يقول: «ولكنه لا رأى لمن لا يطاع»

ويجعل ما أصابه في بيته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم: «.. لم تكن بيعتم إبأى فلتة، وليس أمرى وأمركم واحدا.. إنى أريدكم لله، وأنتم تريدوننى لأنفسكم» ومعاوية يذكر الخصال التي أعين بها على على، فيقول: «إنه كان رجلا لا يكتم سراً و كنت كتوماً لسرى، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة و كنت أبادر إلى ذلك، وكان في أثبت جند وأشدهم خلافا، و كنت أحب إلى قريش منه، فنلت ما شئت..»

وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاح في طلب الخلافة: «إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان، يأكل بأحدهما ويطعم بالأخر»

وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها، إلا أنها تظل ناقصة مالم نقرنها بحقيقة أخرى، وهي أن هزيمة معاوية كانت مرجحة - بل مؤكدة - لو أنه وضع في موضع على، وابتلى بالأسباب التي ابتلى بها.

فالبلاء كله إنما كان في خبث الأجناد وشدة خلافهم، ولهذا كان سر على يعرف وسر معاوية يكتم.. لأن معاوية يطاع ونيته في صدره، وعليها لا يطاع إلا إذا سئل عن نيته وما يحل منها أو يحرم في رأى أتباعه. وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنها كان يروى فيها ما يروى، ولا ينفذ من رويتها إلا الذي ينساق إليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة، وقد بطل الجدل ويطل من قبله التدبر..

* * *

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جنداً مطيناً بجند عصاة، لما طمع في حظ أوفق من حظ على في ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين.. ولو استعان بكل ما أعين به من رشوة الأنصار وكيده الخصوم، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق في الشجاعة والسابقة الدينية، وكذلك قال الإمام: «إن لبني أمية مروداً يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضياع لغبتهما».

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون من تعليل النصر والهزيمة، ولا نعدوه إلى ما وراءه.. فليس من قصدنا أن نصف على بقوة الدهاء وسعة الحيلة، ولكننا

قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه.

فقيام الفصل بين الطرفين، أنه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز رأى ولا قوة دهاء.. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور، وإن قامت الحوادث عائقاً بينها وبين النجاح فإن الدهاء لا يخفى أن تكون المعضلة التى يعالجها محظومة الفشل مقرونة بالخذلان..

ومما لا شك فيه، أن علياً أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة، وأنه وصف أناساً فدل على خبرة الرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال، وأنه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك، ولم يتجاوزها إلى الأمد الذى يسلكه بين الدهاء الموسومين بفرط الدهاء..

فمن مشوراته الصائبة، أنه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه، فقال له: «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنتكب، لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم.. ليس بعده مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً مجرباً.. فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين».

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم، قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير: «لا تلقين طلحة، فإنك إن تلقه تلقه كالثور عاقص - أى لا وياً - قوته يركب الصعب ويقول هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة فقل له: «يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق.. فما عدا مما بدا؟»

ومن حزمه أنه كان يبيث عيونه وجواصيسه فى الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعدائه وأعوانه. وأنه كان إذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والإبطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده.

ومن معرفته للجماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال إنهم أتباع كل ناعق، وإنهم «هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا».. لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فانتفع بهم الناس.

فهذا قسط من الرأى الصائب، كافٍ لمهمة الحكم لو تصدى به الإمام للخلافة..
والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دينية مضطربة في دور تأسيسها
وتلقيق أجزائها..

بل هو قسط كافٍ لمهمة الحكم في الدولة الدينية، لو تولاها بعد استقرارها
والفراغ من مكائد تأسيسها.. كما جاء عمر بن عبد العزيز في صلاحه وتقواه بعد
الملوك الأولين من بنى أمية..

ولكنه قسط من الرأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاء الذين يكيدون
بالرأى وبالعمل النافذ على السواء..

* * *

ونعود بعد ذلك، فنقول إنه لم يخسر كثيراً بما فاته من الدهاء.. ولم يكن ليربح
كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب، لأنه لابد من ملك أو خلافة..

ولن يكون ملكاً بأدوات خليفة، ولا خليفة بأدوات ملك، ولن تبلغ به الحيلة أن
يحارب رجلاً يريد العصر والعصر يريده، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعي
الاجتماعية، وتهيأ الرجل بخلاقته ونياته ومعاونته أمثاله.

ولم يكن معاوية زاهداً في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان، ولكن
الخلافة كانت زاهدة فيه.

فلمَ جاء عصر الملك، طلب الملك والملك يطلبـه..

وقد يـما قال أبوه للعباس عم النبي، وقد رأى جيش المسلمين في فتح مكة: «لقد
أصبح ملك ابن أخيك عظيماً».

فهو الملك، أو هو جاه الدنيا، الذي تطلع إليه من نشأته الأولى في بيته. وانتظر
ثم انتظر حتى لقاءه على قدر، فوضع في موضعه وقام به الموضع كما قام به،
ونجحا معاً على التوافق والوفاء..

وحيـن وجـب أن يـقع الفـصل بين الملك والخلافـة، وجـب أن يكون على رأس
فـريق الخـلافـة.

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين في دوام المنفعة، وبين أصحاب المبادئ والظلامات الراغبين في التبديل والإصلاح، وجب أن يكون علىٌ على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق.

وحين وجب هذا وذاك وجوبا لا حيلة فيه للمتحول، ولا اختيار فيه للمختار، وجب أن تصير خلافة علىٌ إلى ما صارت إليه، كائناً ما كان حظه من الدهاء والخدع، وكائناً ما كان طريقه الذي ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه.

* * *

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك في صراع علىٌ ومعاوية، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع، وقد ظهرت في مآذق شتى من أخرج مآذق التاريخ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيرا في تأسيس الدول وقمع الثورات، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل.. ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغة الحاسمة كلما تأشبت العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع..

فقد علمنا مثلاً أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام في كل خطوة من خطوات النصر، وينقل عليه باللجاجة والعن特 في مواقف مكرية تضيق بها الصدور..

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج. يظهرون بالعن特 في غير موضعه ويدهبون به وراء حده، وربما بلغوا من الضرر في معسكر الإمام فوق مبلغ الأشعث بن قيس، على عظم الفاروق بين سلطانهم وسلطانه.

ألا يخطر على البال هنا، أن ضرورة من الضربات القاضية كانت تنبع في هذا العن特 المكرب حيث لا تنبع العقوبة الشرعية أو الأحابيل السياسية؟..

ماذا لو أن الإمام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد إلى نفسه، ثم ولى على الفور من يقوم مقامه في رئاسة القوم ويكتف لهم الطاعة بينهم لأمره؟.. أكان بعيداً أن تفعل الرهبة فعلها، فيسكن المشاغب، ويهاب المتطاول، ويجتمع المتفرق، ويقل الخلاف بعد ذلك على الإمام وعلى الرؤساء عامة؟

لم يكن ذلك بعيد.

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق، ولا بالمؤمن..

فهى مجازفة ذات حدين، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا.. وقد يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد الذى من قبل المضروب..

وكل ما تفیدنا إیاہ هذه الملاحظة العابرة على التحقيق، أن الإمام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التي اتصف بها بعض أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدايرين. فكانت له ضربة الشجاع، ولم يكن له ضربة المغامر أو المقامر..

ولم يضرب بالسيف قط، كأنه يقذف بالقداح إما إلى الكسب وإما إلى الخسارة.. وإنما كان يضرب به ضرب الجندي الذي يلتمس الغلب بقوته وقوته إيمانه، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب..

على أننا - وقد سجلنا هذه الملاحظة - نفرض أنه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التي عرف بها بعض المغامرين في أوقات الفصل بين العهود..

ونفرض أنه عمد إليها، فنفعته في عسكره وطوعت له الجناد وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتسبعين بالأراء والفتاوي من يمينه وشماله فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذي أجملناه؟ وكيف يكون المخرج بين سياسة الملك، كما يطلبتها العصر، وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقيه من آداب الفترة النبوية؟

أيسوس الإمام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة؟

أيفرق الأموال على رءوس القوم وقاده الجناد وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف والجهاد؟

وإذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصميه، أفهوا الغالب إذن بمتطلبات العصر ومقتضياته ودعاعيه أم هم الغالبون؟

وإذا أعطاهم ليذخوا بذخ الملك الدنيوي وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سُنَّة النبوة، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو في جوهره متناقض لا يستقيم؟..

فالسياسة التي اتبعها الإمام هي السياسة التي كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه، وهي السياسة التي لم يكن له مجيد عنها، ولم يكن له أمل في النجاح إن حاد عنها إلى غيرها.. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذي رأيناها، سواء لأن طلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سُنَّة النبوة والخلافة النبوية.

* * *

ومهما يكن من حكم الناقدين في سياسة الإمام، فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شيء لا سبيل إلى دفعه، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهي منتهية لا محالة إلى ما انتهت إليه..

ومن الجور الشديد، أن يلقى عليه اللوم لأنه باع بشهادة الخلافة، ولا بد لها من شهيد..

وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التي نشأت من قبله، ولم يك يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبي صلوات الله عليه..

أحس بها الصديق، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بوادر الترف الذي استناموا إليه..

وأحس بها الفاروق وأثقلت كاهله، وهو الكاهل الضليع بأفجح الأعباء.. فضاق ذرعا بالحياة، وطفق يقول في سنة وفاته: «اللهم كبرت سنى وضعف قوتي، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط.. اللهم ارزقنى الشهادة في سبيلك».

وأحس بها عثمان، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجين، لا يرجع أحدهما إلا بالغلبة على نده وضده..

وكتب علىَّ بعد ذلك أن يتلقى الدولة الإسلامية بين هذين العسكرين، فلا في مقدوره أن يجمعهما إلى عسكر واحد، ولا في مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك، ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها..

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره، وإنه لإنصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة، وهو الذى باع وحده بتلك النقائض والأعباء..

* * *

وقد نقدت سياسة على لفوات الخلافة منه قبل البيعة. كما نقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة، وأحصى عليه بعض المؤرخين أنه تأخر نيفاً وعشرين سنة.. فلم يخلف النبي، ولم يخلف أبا بكر، ولم يخلف عمر.. كأنه كان مستطيناً أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهده وسعى من تدبيره، فأعياه السعي والتدبير..

ومقطع الفصل فى هذا أن نرجع إلى العوائق التى حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه، لنعلم منها العائق الذى كان فى أيدى الحوادث والعائق الذى كان فى يديه، أو كانت له قدرة معقوله عليه..

فمما لاشك فيه أن الإمام أنكر إجحافاً أصابه فى تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه، وأنه كان يريد أن قرابتة من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة، كما قال... .

ومما لاشك فيه، أن شعوره هذا طبىعى فى النفس الإنسانية كيما كان حظها من الزهد والقناعة، لأن تخطيه - مع هذه المزية التى ترشحه للبيعة - يشبه أن يكون قدحاً فى مزاياه الأخرى، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع، أو يشبه أن يكون كراهة له ومقابلة على الغض من قدره، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدر فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكرابة..

غير أن الخلافة الإسلامية، مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد، ولا يؤتى فيها برأى واحد ولا بحق واحد. وقد يضحي فى سبيلها بالعظيم والعظماء، إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء..

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى فى ميزان على هي العائق الأول فى سائر الموازين، ومنها ميزان النبي صلوات الله عليه..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يتبرأ العصبيات فى قريش، وفى القبائل العربية عامة، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة، وكراحته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين. وقد رضى فى سبيل هذا المقصد الحكيم، أن يجعل بيت أبي سفيان صنوا للكعبة فى أمان اللاجئين إليه، وأصهر إلى أبي سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه، وربما حسن لديه أن تثول الخلافة إلى علىٌ بعده إذا شاء المسلمون ذلك، ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضياً كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه، ويستوى منهم القريب والبعيد.

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأبى إثارة العصبيات وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة فى صورة السيادة الهاشمية، بل كانت الدعوة كلها فى صميم أصولها تأبى هذا الذى أبته الحكمة النبوية وتجنبته غاية ما فى وسعها اجتنابه.. لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب، وتقوم فى أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق. فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية، ولا من المعقول أن يبني الأساس على المساواة، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل..

وإن أحق الناس أن يفطن إلى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا أن وراثة الخلافة فى بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين.. فلو أنها كانت حكماً من أحكام الله، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور، وأن يختتم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت..

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين، أو ضرورات القضاء، لنفذت فى الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم، وحبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية..

فلا النصوص الصريحة، ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية. مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة، أو حصر الخلافة فى الأسرة الهاشمية..

وهذا هو العائق الأول الذي حال بين على وبين الخلافة ولا قدرة له عليه، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة، وذكره الفاروق حين قال: «إن قريشا اختارت لنفسها فأبأ أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة»...

* * *

ويرى بعض المؤرخين، أن قريشا كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعنة أخرى تقترب بهذه العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بني هاشم، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية، والوليد بن عتبة خاله وحنة أخاه، وجميعهم من قتلاه في يوم بدر. عدا من قتلهم في الواقع والغزوات الأخرى، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم في الإسلام، وزادهم حقداً أنهم لا يملكون الثأر من قتلاهم من الكفار. وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد: «... كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه، من إظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيا الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وأبائهم، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله».

وقد علم الإمام هذا من قريش، عندما يئس من مودتها وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها، فقال: «... ما لى ولقريش؟.. أما والله لقد قتلتهم كافرين ولا قتلنهم مفتونين.. والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته.. فقل لقريش، فلتضج ضجيجها».

ولو أن قريشا وادعته في سرها وجهرها، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصدأ عنها ولا تدفعهم إليها، لقد كانت تلك عقبة أى عقبة..

فأما وهي تحاربه بعصابتها وتحاربه بدخولها، فتلك هي العقبة التي لا يذللها إلا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبي صلوات الله عليه، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش في أرجاء الدولة الإسلامية بأسراها..

* * *

ولقد سبق الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم: أبو بكر وعمر وعثمان.. فإذا نظرت إلى عائق العصبية الذي قدمناه، فلا نرى شيئاً أقرب إلى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم إلى ولادة الخلافة بعد النبي عليه السلام، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح..

فليس أقرب إلى طبائع الأمور في بلاد عربية إسلامية من اتجاه الأنظار إلى مشيخة الإسلام في السن والوجاهة والسابقة الدينية، لا اختيار الخليفة من بينها على السنة التي لم تتغير قط في تواریخ العرب الأقدمين، ولم يغيرها الإسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين.

ولم يكن الإمام عند وفاة النبي من مشيخة الصحابة التي تؤول إليها الرئاسة بدهاء بين ذوي الأسنان، ممن مارسوا الشورى والزعامة في حياته عليه السلام.. لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل. وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهور على في الحياة العامة، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقير والولاء.. والعائق الذي قام بين على وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقرير..

ونعني به عائق العصبية الهاشمية..

لأن قريشاً لا تنفس على بني تميم، ولا بني عدى، ولا بني أمية، في رئاسة عثمان خاصة.. كما تنفس على بني هاشم، إذ تجتمع لهم النبوة والخلافة..

* * *

والإمام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق: «إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: «إن ولی عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً.. وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم».

وإذا اجتمع هذا العائق إلى عائق السن والتوكير للمشيخة المقدمة، فهما مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه..

نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق، وبلغ الإمام الخامسة والأربعين، وسبقت له في المشورة سوابق مأثورات.. فأصبح الفارق بينه وبين من يكثرون مزية تعين على العمل والجهد وتنفي مظنة الضعف والتواكل. ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية و Yas الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب إلى بعض الأمل في لين عثمان وتقديم سنّة منهم إلى أمل من الآمال في شدة الإمام وعسر حسابه..

ويقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها، لم يكفف منها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد..

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها، دخلت في الأمر دخلة البواعث الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بني الإنسان في زمن من الأزمان.. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده، فتقديم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدهم. وقيل إنه أنس مع الزبير وسعد بن أبي وقاص ميلاً موقوتاً إلى علىٰ وانحرافاً موقوتاً عن عثمان، فسارع إلى المنبر وبأيام عثمان وجراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهراً لعثمان، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

ويقضى الحق أن يقال في هذا المقام إن بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت علىٰ وقدمت عثمان عليه، إذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف.. وهو واحد من خمسة أو ستة إذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب..

* * *

ثم بُويع الإمام بعد مقتل عثمان، فهل تحولت قريش عن جفوتها، أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها؟

كلا...

بل جاءت البيعة في المدينة. يوم خفت فيها صوت قريش، وهبطت سمعة حكامها.. يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش، تذكر عليها الأثرة بالملك والأثرة بالغنائم والأمصار.. ويوم انقسم المجتمع الإسلامي قسميه اللذين التبسا وتدخلوا حيناً حتى فصلتّهما الحوادث فصلها الحاسم في خلافة عثمان: قسم يريد الرجعة إلى الخلافة والأداب النبوية، وقسم يريد المضي في الملك والدولة الدنيوية..

فأى القسمين كان قسم علىٰ كائناً ما كان سعيه واجتهاده؟.. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبي إلى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان؟

كل سياسة له لم تكن لتحديد به عن الخاتمة المحتومة أقل مجيد.

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره، فهو على هذا الملتقى الذي يتلاحق عنده الإسراع والإبطاء..

وعلى هذا ينبغي أن نرجع إلى علة غير سياسة علىٰ لتعليق العوائق التي قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان..

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التي نظرت بها قريش إلى السيادة الهاشمية..

وهو غير مسئول عن سنّه التي تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة في الجهاد والزعامة والأصالة بين ذوى الأسنان والأخطار..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التي جعلت تأسيس الإسلام على أسرة واحدة في العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوjos والإحجام منذ اللحظة الأولى..

نعم قد يسأل الإمام عن علاقته الناس وقدرته على تألفهم بالأمال، والمجاملات، ليأنسوا إليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه، ويؤثروه على غيره بالخلافة، أملاً في بره واطمئناناً إلى حفاظته ووده.

وقد يرد على بعض الخواطير، أن سياسة الدولة الدينية أو سياسة الإرضاء بالمنافع والوعود، كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولاً وأخراً بين قريش وقبائل العرب عامة..

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله، ويسأل عنه كما يسأل الإنسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره.. ولا يجوز أن نرجع به إلى حكم الحوادث القاهرة، وسلطان المصادفات التي لا قبل له بتبدلها ولكن الواقع أن هذه السياسة - لم تكن لتجديه شيئاً بعد وفاة النبي، ولا بعد مقتل عثمان..

فبعد النبي عليه السلام، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت في الأيدي وأنشأت في المجتمع الإسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها.. فالذى يناضل في سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع، إنما كان يناضل بسلاح غير موجود.. بل كان يناضل سلاحاً ماضياً ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غلت في ضرباتها الأولى كل سلاح.

أما بعد مقتل عثمان، فأبعد الأمور عن التخييل أن يغلب على معاوية في سوق المنافع الدينوية، لأن معاوية قد أحب لها أهبيه قبل عشرين سنة، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه في بلاد وادعة بين جند مطيع.

ولو توافرت لعلى مادة هذه السياسة، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها.. فليس أقل نفعاً في هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين.. فلا يديرون أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه.

وأغلبظن أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه..

فقد حببته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم، ولا مطعم لها فيه.. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق، ونشأت في اليمن - وقد عهدت حكمه قدیماً - تلك الطائفة السبئية التي غلت في حبه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس، وانتشرت في مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال، وشنت الشام لأنها كانت في يد معاوية، وشنت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت

في يد طحة والزبيين، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها.. فلولا أن سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة، وإن العصب من القادة كانوا كلما وجدوا في بقعة من البقاع وجد معهم النفع والاستغلال. لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين..

فأغلب الظن - كما أسلفنا - أن علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الدينوية، ولا يكسب العصب التي ناصبته العداء. وأيقنت أنه حائل بينها وبين ماطمحت إليه من الصولة والثراء..

وهذا على تقدير المقدرين أن علياً يواخذ لاجتنابه هذه السياسة، وأنه لو اتبعها لكان أجدى عليه..

وليس هى أجدى عليه لو اتبعها، ولا هو على اجتنابها بملووم..

وتقضى بنا هذه التقديرات جمياً إلى نتيجة واضحة نلخصها في كلمات وجيبة. ونعتقد أنها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي كثرت فيها مطارات النقد والدفاع..

فسياسة على لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى..

وهي كذلك لم تبلغه مأرب مستعصية، كان يعز عليه بلوغها في موضعه الذي وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى عليه..

فليست هي علة فشل منتزع، ولا علة نجاح منتزع، أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يخلق، ولا تستدعي النجاح من حيث لم يسلس له قياد..

ورأينا في سياسته فهما وعلما، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التي هي إلى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء..

فكان نعم الخليفة، لو صادف أوان الخلافة..

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغناه عن المساومة والإسفاف..

ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في أوان ملك موظد، فحمل أعباء التقىضين، وأخفق حيث ينبغي أن يخفق أو حيث يعييه أن ينجح.. وتلك آية الشهيد..

* * *



حُوكْمَتَهُ

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين علىٰ وعاویة.. ولكنها وقیت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها.. وتتلخص عوامل الأمان في وقائين اثنين:

أحدهما، أن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح إليها، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حكمه وهو باق على اعتقاده..

وثانيهما، أن أعداء الإسلام كانوا في شاغل عنهم بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف، وربما صر في الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى، وهي أنها لن تكون شرًا محضا في جميع عواقبها، ولا تخلو من الخير على قصد من ذويها.. فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الإسلام بالانتظار، وأوقعت في روعهم أنهم غنيون عن التحفز والوثوب الذي يشق عليهم جهده، وهم في تلك الحالة من الجهد والإعياء.. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاویة بالجلد والأناء، وألهى القوم عنه ببعض الإتاوات والنوافل.. فتراجعوا متربصين إلى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه، وهم وادعون مكفيون شر القتال.. فكان هذا الانتظار الخادع جانباً من جوانب الخير في الفتنة الإسلامية التي فاضت يومئذ بالشرور.

وعلى هذا انقضت أيام علىٰ، وليس للحكومة الإسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح، أو سياسة الدفاع، أو سياسة المقاومة والاستطلاع..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة علىٰ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث..

* * *

ومن البسيط أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه، بغير حاجة إلى الإطالة
في التعريف وسرد الأمثال..

لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في
نضالها الأخير مع الدولة الدينية.

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين، فإذا طريق علىٰ هي طريق الخلافة
المنزهة، حين تقابل الدولة الدينية مقابلة الخصم للخصم أو التقيض للنقيض،
أو هي أقرب الطريقين إلى المساواة وأدناهما إلى رعاية الضعفاء..

فالناس في الحقوق سواء..

لا محاباة ولا إجحاف بضعف، وقد عمد إلى القطاعات التي وزعت قبله على
المقربين والرؤساء، فانتزعها من القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين
لتوزيعها بين من يستحقونها علىٰ سنة المساواة، وقال: «والله لو وجدته قد تزوج
به النساء وملك به الإمام لردهته، فإن في العدل سعة.. ومن ضاق عليه العدل
فالجور عليه أضيق».

وفرض الرفق بالرعاية على كل وال، فلا إرهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة
هي صاحبة الحق في المال.

فمن وصاياه المكررة لولاته: «أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم
فإنكم خزان الرعية.. ولا تحسموا أحدا عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبه، ولا
تبين للناس في الخراجكسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدا،
ولا تضرن أحدا سوطا لمكان درهم».

ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات: «.. امض إليهم بالسكينة والوقار
حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدع بالتحية لهم، ثم تقول: عباد الله.
أرسلني إليكم ولِّيُ الله وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في
أموالكم حق فتؤدوه إلى ولِّيُه؟.. فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه.. وإن أنعم لك منع،
فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطيك من
ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له..
إذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به.. ولا تنفرن بهيمة

ولا تفزعها، ولا تسوعن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين، ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في ماله.. فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله...».

وكان دستوره في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس، أن النظر في عمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب الضريبة، فكان يكتب إلى واليه: «تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله.. فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم.. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ول يكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهله، وإنما يعوز أهله إسراف الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالغير...».

أما دستوره في الولاة والعمال، فخلاصته ما كتب به إلى الأشتر النخعي يقول له: «انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة.. فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياة من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام، فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح إعراضاً وأقل من المطامع إسرافاً، وأبلغ في عوقيب الأمور نظراً.. ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم.. فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعاية».

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال، كان ينهى أشد النهي عن كشف معايب الناس، أو كما كان يقول في وصية ولاته: «وليكن أبعد رعيتك منك وأشناهم عندك أطلبهم لمعايب الناس.. فإن في الناس عيوباً، الوالى أحق من سترها.. فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك».

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس، فقال في وصيته لمحمد بن أبي بكر: «لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور..

فإِنَّ الْبَخْلَ وَالْجِبْنَ وَالْحَرْصَ غَرَائِزَ شَتَّى يَجْمِعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ.. إِنَّ شَرَّ وَزَرَائِكَ مِنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزَيْرَا، وَمِنْ شَرِّكُهُمْ فِي الْأَثَامِ فَلَا يَكُونُ لَكَ بَطَانَةٌ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثْمَةِ وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ، مَنْ مِنْ لَهُ مُثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ.. وَلَيْسَ عَلَيْهِ مُثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ»..

ولم ينكر قط شيئاً من سياسة التولية، ثم صنع مثله في عهده، على كثرة الإغراء حوله باصطدام التقية والمداراة والهودادة قليلاً مع الأقرباء وذوي الأخطار..

ومن زعم غير ذلك، من ناقديه في عصره أو بعد عصره، فإنما هو آخذ في المقارنة بالأشكال والحرروف دون المواطن والغايات..

إذ كان مما قيل مثلاً إن علياً أقام عبد الله بن عباس على البصرة، وعبد الله ابن العباس على اليمن، و Mohammad بن أبي بكر ابن زوجته على مصر.. وهم أقرباؤه وخاصة أهله، فهو إذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من إيثار الأقرباء بالولايات وإقصاء الآخرين عنها..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحرروف دون المواطن والغايات، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تسفر عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسعاً لعمل أو ولاية في غير حكومة الإمام، ولم يكن الإمام معتمد على غيرهم بعد أن حاربته قريش، وشاعت الفرقة والشغب بين أهوانه من أبناء الأمصار..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها لاستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه.. بل كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أسر حساب، وكانوا لتصفيقه عليهم في المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقليون منها، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة..

وقد بلغ من حسابه للولاية أنه كان يحاسبهم على حضور الولايات التي لا يحمل بهم حضورها.. فكتب إلى عثمان بن حنيف الأنباري عامله على البصرة: «أما بعد يا بن حنيف، فقد بلغنى أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة..

فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان.. وما ظننت أنك تجib إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقصم.. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه»

واستكثر على شريح قاضيه أن يبني دارا بثمانين ديناراً، وهو يرزق خمسماة درهم.. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرجا في الدين..

فلو أن الإمام اختص أقرباءه بالولايات التي يحاسبون عليها هذا الحساب، لما كان في اختصاصه إياهم مستبيح حق ولا مستبيح مال.. فكيف وهو لا يختصهم إلا بالقليل منها، ولا يختصهم ولو مندوحة عنهم، أو يختصهم وهم دون غيرهم في القدرة والأمانة؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف، وكل ما توحى إلى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك.

وقد انقسمت طريق الخلافة، وطريق الدولة الدينوية في كل أمر من الأمور على عهد الإمام ولم تنقسم في مسألة الولاية أو مسألة الاستغلال وكفى.

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين في عهده قيام الفكرة العالمية إلى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية..

فالدولة الدينوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية، والخلافة الدينية تشد أزرها بالإخاء بين الشعوب ويطلان الفوارق بين الأجناس..

وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية في سبيل الرأى والعقيدة..

وكان أنصار الإمام أبداً من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة، وبين بنى هاشم على الأخص، وبين قبائل العرب على التعميم..

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامية علي أو خلافته، أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة.. فإذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك، أيًا كانت السياسة المتوكأة، وبالغاً ما بلغ نصيبها من السداد والصواب..

ولنا أن نعمم هذا الحكم الإنساني في كل شأن من شؤون الحكومة، قضى به على في عهده أو عهود الخلفاء من قبله..

فالروح الإنساني هو قوام الحكومة الإمامية، كما ينبغي أن يكون، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الأدمية.. وهي طاقة لها مالها من حدود..

جيء إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه في حملها، فاستفتى الإمام.. فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تضع جنينها، وقال له: «إن كان لك سلطان عليها، فلا سلطان لك على ما في بطنها».

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين بإقامة الحد عليها.. وسأله عمر فقال: «أما سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المبتلى حتى يعقل!» قال: «بلى» قال: «فهذه مبتلاة بمن فلان.. فلعله أتاهما وهو بها» قال عمر: «لا أدرى» قال: «وأنا لا أدرى» فترك رجمها للشك في عقلها..

وأتى عمر بامرأة أجدها العطش، فمررت على راع فاستسقته.. فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها.. ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال على: «هذه مضطربة إلى ذلك.. فخل سبيلها».

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصاص وتفسیر الشريعة..

غير أنه قد حاد عن هذه السنة في أمر واحد خالقه فيه بعض فقهاء عصره، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس.

وذلك هو إحراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلة، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة، وقيل إنهم أصرروا على عنادهم وهم يحرقون.. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو المعبود.. إذ لا يعذب بالنار إلا الله.

فهؤلاء المفسدون المفتونون، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلال.. ولكن الإحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب، وليس في اجتنابها خطر على الشريعة، ولا على النظام..

إنما شفيع الإمام في هذه الصرامة أنه كان هو المستهدف لتلك الضلال، وهو مظنة الريبة في الهوادة فيها.. فهو ينزعه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنون، وقد أحرق الذين ألهوه.. ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره، إلا أن يفسدوا في الأرض أو يبدعوا بالعدوان على بريء.. وفي هذا الانصاف بين مؤلهيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة في العقاب، وكان الإمام يذكر أبدا في حكومته أن الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد، حيث قال: «رأيت علياً عليه السلام خارجاً من همدان، فرأى فتيبين يقتتلان ففرق بينهما.. ثم مضى فسمع صوتاً ياغوشا بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله، وهو يقول: «أتاك الغوث...» فإذا رجل يلازم رجلاً، فقال: «يا أمير المؤمنين.. بعث هذا ثوباً بتسعة دراهم وشرط عليه ألا يعطيه مغموزاً ولا مقطوعاً، فأتيته بهذه الدراما ليبدلها لى فأبى فلزمته فلطمته» فقال: «أبدلها» ثم قال: «بينك على اللطمة» فأتاه بالبينة.. قال: «دونك فاقتصر» قال: «إنى قد عفوت يا أمير المؤمنين» قال: «إنما أردت أن أحاط في حكك».. ثم ضرب الرجل تسع درايات، وقال: «هذا حق السلطان».

وكان يكرر هذا الحكم في كل ما يشابهه من أمثال هذا العدوان، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية في القصاص.

ويقال الكثير عن مناهج الإمام في الحكومة وسياسة الرعية مما يغنى فيه هذا الإجمال عن التوسيع في التفصيل..

ولكن الذي لا ينسى في سياق الكلام عن الإمامة والدعوة العالمية، أنه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة إلى أرض غير أرض الحجاز، وهو الحجازي سليل الحجازيين..

وقد اختار الكوفة، فكانت أوفق عاصمة للإمامية العالمية في تلك المرحلة من مراحل الدولة الإسلامية..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن وال伊拉克 والشام، وكانت العاصمة الثقافية التي ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات.. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة إمام، وما زالت الإمامة لاحقة بعلى ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام..

* * *



النبي والإمام والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فضل علىٰ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة.. منها ما انفرد به، وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال: «رأيت رسول الله ﷺ خيم خيمة، وهو متكم على قوس عربية، وفي الخيمة على فاطمة والحسن والحسين، فقال: عشر المسلمين.. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولِي لمن لا يهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء الولادة».

ومنها ما اشترك فيه هو وغيره، وهو الذي روتة السيدة عائشة حيث سئلت: «أى الناس أحب إلى رسول الله ﷺ؟..».. قالت: فاطمة!.. فقيل: من الرجال؟.. قالت: زوجها.. إن كان ما علمت صواما قواما»

وقد روی حديث في هذا المعنى، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه، فقال: «من النساء عائشة، ومن الرجال أبوها».

ولا تناقض بين الحديثين، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروي الحديث الأول، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه، أو كانت تروي عن أقرباء النبي من لحمه ودمه، فتقول ما تعلم عن غيرها.

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل علىٰ ومحبته و منزلته عند الله ونبيه، وهي تعد بالعشرات.

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث، وفي أسانيدها، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للإمام أو التشيع عليه.. وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا أن ننصر فيه فريقا على فريق، أو نرجح مذهبا على مذهب.. إذ ليس فهم الإمام موقوفا على تغلب أي الفريقين وتعزيز أي المذهبين، وفهم الإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه..

فمهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث، فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم، أن علياً كان من أحب الناس إلى النبي، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق..

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين.. فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم إنساناً، كان ابن عمه الذي كفله وحماه، وكان رببه الذي أوشك أن يتباها، وكان زوج ابنته العزيزة عنده، وكان بدليه في الفراش. وكان نصيره الذي أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته، وتلميذه الذي علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئ في سن؟..

حب النبي لهذا الإنسان حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل الرواة ولا إلى تفسير النصوص، لأنها حقيقة طبيعية، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف.

ومما لا خلاف فيه كذلك، أنه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه إياه.. بل كان يسره ويرضيه أن يحبه إلى الناس، وكان يسwoه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجرفوه..

بعث رسول الله علياً في سرية ليقبض الخمس، فاصطفى منه سبية، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله. وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدعوا بالرسول، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم، ثم انصرفوا إلى رحالهم.. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه، وظن أصحابه أنه لم يسمعه.. فتناوياً الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه. فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال: «ما تريدون من على؟.. ما تريدون من على؟.. ما تريدون من على؟.. على مني وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدي» وقال لأحدهم في روايات أخرى: «أتبغض علياً؟» قال: «نعم!» قال: «لا تبغضه، فإن له في الخمس أكثر من ذلك، أى أكثر من السبية التي اصطفاها.. لا تبغضه، وإن كنت تحبه فما زد له حباً».

* * *

وبعث رسول الله علياً إلى اليمن، فسألة جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم، فأبى.. فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد، فقال: «يارسول الله.. لقينا من على من الغلظة وسوء

الصحبة والتضييق..» ومضى يعدد ما لقيه، حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه، وهتف به: «يا سعد بن مالك بن الشهيد، بعض قولك لأخيك على؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله»

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى، فقام رسول الله فيهم خطيباً يقول لهم: «يأيها الناس.. لا تشكوا علياً، فوالله إنه لجيش في ذات الله»..

ويلوح لنا أن النبي عليه السلام كان يحب علياً ويحبه إلى الناس، ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحباً.. لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه، ولم يحذر خطراً على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلاً إلى الملك والدولة في بنى هاشم، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفى هذه الظنة.. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأي والمشيئة..

فالالتزام في التمهيد لعلى وسائل ملموحة لا تتعذر التدريب والكافلة إلى التقديم والوكالة، أرسله في سرية إلى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام، وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة. وبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارة بيت الله، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك.. ولم يفتئ مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس، وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام، ويكلهم في شأنه إلى ما ارتسوه، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه..

هذه فيما نعتقد أصلح علاقة يتخيّلها العقل، وتنبئ عنها الحوادث بين النبي وابن عمّه العظيم..

وربما كانت أصلح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدها العلاقة الممكنة المأمولة، وكل ما عدّها فهو بعيد من الإمكان بعده من الأمان.

فهو يحبه ويمهد له وينظر إلى غده، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه، وأن يحبّين الحين الذي يكلون فيه أمرهم إليه..

وكل ما عدّا ذلك، فليس بالممكن وليس بالمعقول..

ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة..

وليس بالممكن أن يحبهما له، وينسى فى سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة..

وإذا كان قد رأى الحكمة فى استخلافه، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر به فى مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع..

وإذا كان قد جهر به، فليس بالممكن أن يتائب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره. إنهم لا يريدون ذلك مخلصين، وإنهم إن أرادواه لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين، وإنهم إن استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين، ولو بعد حين..

فكل أولئك ليس بالممكن، وليس بالمعقول..

وإنما الممكن والمعقول هو الذى كان، وهو الحب والإيثار والتمهيد لأوانه، حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان.

* * *

أما العلاقة بين علىٰ وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء، فهى علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يثوب إلى الصبر والتجمل والتقية..

فليس فيما لدينا من الأخبار واللامع ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد من الصحابة المشهورين، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضه.. بل ليس فى أخباره جميرا ما يدل على طبيعة تحقد على الناس، وإن دلت أحيانا على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون.

فمن المعلوم أن علياً كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبى عليه السلام إلى الرفيق الأعلى. واحتج المهاجرون على الأنصار فى أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه. قال: «ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلجووا^(١) عليهم.. فإن يكن الفرج به فالحق لنا دونكم، وإن بغيره فالأنصار على دعواهم».

(١) فلجووا: أى انتصروا عليهم.

كذلك كان رأيه في الخلافة يوم بُويع بها الصديق، ثم بُويع بها الفاروق، ثم بُويع بها عثمان..

وجاءت قضية الإرث بعد قضية الخلافة في أوائل عهد الصديق، فباعدت الفرجة بين القلوب، وأطالت العزلة بين الأصحاب.. وخلاصة هذه القضية، أن فاطمة والعباس رضي الله عنهم طلباً ميراثهما في أرض فدك وسهم خيبر، فذكر لهم الصديق حديث النبى عن إرث الأنبياء، ونصه في روايته: «نحن معاشر الأنبياء، لا نورث.. ما تركناه فهو صدقة.. إنما يأكل آل محمد من هذا المال»

فغضبت فاطمة، ولم تكلمه حتى ماتت. ودفنتها على ليل، ولم يؤذن بها أبا بكر.. وقيل إن علياً تخلف عن البيعة ستة أشهر إلى ما بعد وفاتها. ثم أرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد.. وتلقاه وعنه بنو هاشم، فقال: «إنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددت به علينا».

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره، نرجع إلى سيرته وأحاديثه.. فنرى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمـة، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله، أو يتجاوزها حد الحجة التي تنهض بحقه.. بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يتجاوزه إلى جمحة غضـب تفلـت معها بـوادر اللسان، ولو جـاوزـه لـكان عـاذـرـوهـ أـصـدـقـ منـ لـائـمـهـ!ـ

* * *

وقد أـعـانـ أـسـلـافـهـ الثـلـاثـةـ بـرـأـيـهـ وـعـمـلـهـ، وجـامـلـهـمـ مجـامـلـةـ الـكـرـيمـ بـمـسـاـكـهـ وـمـقـالـهـ. وـلـمـ يـبـدـ مـنـهـ قـطـ مـاـ يـنـمـ عـلـىـ كـرـاهـيـةـ وـضـغـنـ مـكـتـومـ.. وـلـكـنـ كـانـ يـأـنـفـ أنـ يـنـكـرـ هـذـهـ الـكـرـاهـيـةـ إـذـاـ رـمـىـ بـهـاـ كـمـاـ يـأـنـفـ الـعـزـيزـ الـكـرـيمـ. وـفـىـ ذـلـكـ يـقـولـ منـ خـطـابـ إـلـىـ مـعـاوـيـةـ:ـ «ـذـكـرـتـ إـبـطـائـىـ عـنـ الـخـلـفـاءـ وـحـسـدـىـ إـيـاـهـمـ وـالـبـغـىـ عـلـيـهـمـ، فـأـمـاـ الـبـغـىـ فـمـعـاـزـ اللـهـ أـنـ يـكـونـ، وـأـمـاـ الـكـرـاهـيـةـ لـهـمـ فـوـالـلـهـ مـاـ أـعـذـرـ لـلـنـاسـ مـنـ ذـلـكـ»ـ.

وأولى أن يقال إن دلائل وفاته في حياتهم، وبعد ذهابهم، كانت أظهر من دلائل جفائه. فإنه احتضن ابن أبي بكر محمدا وكفله بالرعاية ورشحه للولاية، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله، وقد سمي ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان..

ويخطئ جدا من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نعمة منه في أبنائه.. فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقاما لأبيه، ولم ينتظر حكم ولد الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه. فلما استفتى في هذه القضية افتى بالقصاص منه، ولم يغير رأيه حين تغير رأي عثمان، فأعفاه من جريمة عمله.. لأنه هو الرأي الذي استمد من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه، وبهذا الرأي دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم، فأوصى وكرر الوصاية إلا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقاء في التآمر عليه.

وإنك لن تجد إنساناً أعرف بالعهد، ولا أصون له من يتذكرة في حومة الحرب، ويرى أن التذكير به ينزع السلاح من الأيدي، ويعود بالخصميين المتناجين إلى الصفاء والإباء..

فما حارب على عدوا له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ويستند بالصداقة الأولى فيها على العداوة الحاضرة..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل، وهم ملحان في حربه وإنكار بيته..

فخرج حاسرا لا يحتمى بدرع ولا سلاح، ونادى:

يا زبير، اخرج إلى.. فخرج إليه شاكا في السلاح، وسمعت السيدة عائشة فصاحت: واحرباه!.. إن كان خصم على مقضيا عليه بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل على بالزبير اعتنقا، وعاد على يسألها: «ويحك يا زبير ما الذي أخرجك؟..»

قال: «دم عثمان».

قال: «قتل الله أولاًنا بدم عثمان»

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله، ومنها مقالة النبي: «والله ستقاتله وأنت له ظالم».

فاستغفر الزبير وقال: «لو ذكرتها ما خرجت»

* * *

ولما وقف على جثة طلحة بكى أحر بقاء، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول: «عزيز على أن أراك أباً محمد مجنلاً تحت نجوم السماء» وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

والمودة عند فارس كعلى عهد محفوظ وموثق مذكور، إن فاتها أن تكون حنان قلب أو ألفة شعور.

ويخيل إلينا أنه لم يرزق قط صدقة الألفاء الذين يرعاهم ويرعنونه لأنه يحبهم ويحبونه، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنة العهود ودين الفروسية، فلم تزل بينه وبينهم إيماءة إلى سلاح مغمد أو سلاح مشهور.

ومثل على لا يرزق صدقة الألفاء، لأنه من أصحاب المزايا التي تغري بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المساعدة والمداراة.

فهو شجاع، عالم، بلieve، ذكي، موصول النسب بأعرق الأرomas. فإن لم يحسد هذا، فمن يحسد؟..

وإن حسد، فما الذي يفل من غرب حاسديه؟.. وما الذي يفني بهم إلى القصد في عدائه والتأليب عليه؟..

إنهم يستبعدون يومه في الإمارة والسلطان، وإن استقريوا يومه في الإمارة والسلطان فلا مطعم لهم في النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق، فنصيبه إذن منهم نصيب المحسود الذي لارجاء له في هواه من حاسديه، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم يطعموا في نفعه ولم يزالوا على طمع في النفع من خصومه، وبليته بهم أكبر وأدعى حين لا يصطنع الدهان ولا يعمد معهم إلى الختل والروغان.. وعلى أنه لو داهنهم وراوغهم لما اغتافوا له

ذنب العظمة التي لا تحميها حماية من طمع أو نكایة، أو كما قال الحكيم الغربي:
«إن نسى أنه أسد لم ينسوا أنهم كلاب».

* * *

وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها وبين آلها
 وأنصارها..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة، كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها
الواجب مناب الألفة..

والعلاقة بينه وبين الخصوم، كانت علاقة حسد غير مكفوف، وبغض غير
مكتوم..

والعلاقة بينه وبين سواد العامة، كانت علاقة غرياء يجهلونه ولا ينفذون إلى
لبابه، وإن قاربه أناس معجبين، وباعده أناس نافرين..

وتلك أيضا آية الشهيد..

* * *

٩ ثقافته



السنة الخلق أقلام الحق..

كلمة سائفة ليس أصدق منها إن صدقت، وهي صدق في كثير من الأحيان..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التي ينقلها لسان عن لسان ويترقاها جيل عن جيل، فيخيل إلينا أنها خاطر عابر يسمع ويستلمح ويشفع له القدم.. فنقبله كرامة له كما نقبل السمين والغث أحياناً من وقار المشيب، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس، ثم نعرضه اتفاقاً على العلم والقياس.. فإذا به قد احتمل من النقد العسير ماليس تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء، وإذا بالخطأ في هذه القولة الشائعة أو في هذا اللقب المرتجل أقل من كل خطأ يحصى على كلام مخلوق..

من هذه الألقاب الشائعة، لقب الإمام الذي اختص به علىٰ بين جميع الخلفاء الراشدين، والذي يطلق إذا أطلق فلا ينصرف إلى أحد غيره، بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولا حقيه..

ولمَ وليس هو بفرد في الإمامة بجملة معانيها؟..

ألم يكن الصديق إماماً كعلى؟.. ألم يكن الفاروق إماماً كعلى؟.. ألم يكن عثمان إماماً كعلى؟.. ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الراسدة بعد النبوة؟..
بلى كانوا أئمة مثله، وسبقوه في الإمامة..

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك. ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية، ولا أن يتحيز بعسكر يقابل عسكر، وصفة تناوئها صفة، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقترب بها ولا يقترب بشيء غيرها.. فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تذليل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس.

وذاك هو على بن أبي طالب، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة.. فعرفه به الطفل وهو يسمع أحاديحة المنغومة في الطرقات، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف..

* * *

وخاصية أخرى من خواص الإمامة، ينفرد بها على ولا يجاريه فيها إمام غيره، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام. فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه. وندرت فرقه في الإسلام لم يكن على معلما لها منذ نشأتها، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثتها، تقول فيه وترد على قائلين.

وقد اتصلت الحلقات بيته وبين علماء الكلام والتوحيد، كما اتصلت الحلقات بيته وبين علماء الفقه والشريعة، وعلماء الأدب والبلاغة.. فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول..

أما الفرق التي جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثتها، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبيين وأهل السنة، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير.

هنا تتشتبك الفروع وتتأشب الأفانين، فترى الفرقة الواحدة مزيجا من التصوف والسياسة، كالباطنية على اختلافها.. وقد تترافق بها الفروع حتى تصل إلى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء، وهم طرف مقطوع أو موصول، من بعض تلك الأصول..

فالإمام أحق لقب به، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام!..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته، وكثير من معارض حياته، وطوارئ أوقاته..

وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات..

فآية الشهداء أنهم يبخسون حقهم في الحياة، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في إقبالها وإبارها، كما قال الإمام رضي الله عنه: «إنها إذا أدبرت عن إنسان سلبته محسن نفسه، وإذا أقبلت عليه أعارته محسن غيره».

وكذلك اتفق للإمام في صفة الإمامة، كما اتفق له في معظم الصفات..

فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه، وقل أن تحدث الناس بفصل لم ينحلوه إياه، وقل أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه..

نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه..

ونحلوه علما سموه علم «الجفر» وزعموا أنه علم النجوم والأزياج الذي يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان.

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق.

وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ويرفعه شأنا، ألا تصح نسبته إليه!..

ويعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه.. كاف لتعظيم قدره وإثبات إمامته في عصره، وبعد عصره.

وعندنا أنه رضي الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئل: «من أشعر الناس؟» قال: «إن القوم لم يجرروا في حلقة تعرف الغاية عند قصبتها.. فإن كان ولابد فالملك **الضلليل**».

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأغراض الشعرية بين العرب. فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالفضيل إلا على التغليب.

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكرة الإجادة فى شعره، والنبوى عليه السلام يرى ذلك حيث سأله أن يأذن لعلى فى هجاء المشركين فقال: «ليس بذلك».. وأحالهم إلى حسان بن ثابت، وندب له من يبصره بمثالب القوم..

وكل شعره الذى رجحت نسبته إليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين:

فوارسها حمر النحور دوام	ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا
عجاجة دجن ملبس بقتام	وأعرض نفع فى السماء كأنه
وكندة فى لخم وحى جذام	ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير
إذا ناب دهر جنتى وسهامى	تيممت همدان الذين هم هم
فوارس من همدان غير لئام	فجاوبنى من خيل همدان عصبة
وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام	فخاضوا لظاها واستطاروا شارها
لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام	فلو كنت رضوانا على باب جنة

أو من قبيل هذه الأبيات:

وحمزة سيد الشهداء عمى	محمد النبوى أخي وصهرى
يطير مع الملائكة ابن أمى	وجعفر الذى يمسى ويضحي
منوط لحمها بدمى ولحمى	وبنت محمد سكنى وعرسى
فأيكم له سهم كشهمى	وسبطاً أحمد ولدائى منها
صغيراً ما بلغت أوان حلمى	سبقتكم إلى الإسلام طرا
فمن ذا يدعى يوماً كيومى	وضليلت الصلاة وكنت فرداً

وقد نظم شعراً ولا ريب، كما يدل سؤالهم النبوى عليه السلام أن يأذن له فى هجاء من هجاهم، ولم ينسب إليه شعر.. صح أو لم يصح، أجود مما قدمناه. وليس فيه ما يسلكه بين المجددين من الشعراء، أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء..

* * *

أما كتاب الجفر أو علم الجفر، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما نحلوه وأضافوا إليه.. فمثل على في تقواه وفضله، لا يستغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه، وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه. وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم، ومن المحقق الذي لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها، هي من مدخل الكلام عليه.. ومما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل..

ولا نجزم مثل هذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من بعض الحروف، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من أزياج النجوم، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن، وحاجة النسبة هنا إلى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير.

وكذلك نستبعد أنه قال لكاتبه ليظهر علمه بغرير اللغة: «الصدق روانفك بالجبو布 وخذ المزير بشناترك واجعل حندورتيك إلى قيهلى حتى لا أنفي نفيه إلا أودعتها بحماطة حلجلانك»

أى «الصدق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك إلى وجهي حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعيتها في سواد قلبك»

فإن الولع بإظهار العلم بالغرير بدعة لم تعرف في صدر الإسلام، ولم يلتفت الناس إلى ادعائهما إلا بعد استعجمان العرب وندرة العارفين.

ومثل هذا، ما نسبوه إليه حيث زعموا أنه قال: «ما تر بعلبنت قط» أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء، و «ما تسبتسمكت قط» أى ما أكلت السمك يوم السبت «وما تسرولقمت قط» أى مالبس السراويل قائما.. إلى أشباه هذه المختروعات التي تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رجل كالإمام في صدر الإسلام.

غير أننا نسقطها جميا، فلا نسقط بها فضلا ترجح به موازين الإمام في حساب الثقافة.. بل نحسبها فضلا - إن شئنا - ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح في تلك الموازين..

تبقى له الهدية الأولى في التوحيد الإسلامي، والقضاء الإسلامي، والفقه الإسلامي، وعلم النحو العربي، وفن الكتابة العربي.. مما يجوز لنا أن نسميه أساساً صالحاً لموسوعة المعارف الإسلامية في جميع العصور، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام..

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور..

ففي كتاب نهج البلاغة، فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأله وحكمة التوحيد.

وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها إلى الإمام لغبته الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالأراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعممية، ولا سيما الكلام على الأضداد والطبع والعدم والحدود والصفات والمواضف، ولكن الذي يقرؤه الباحث ولا يشك في نسبته إلى الإمام أو في جواز نسبته إليه، قسط واف لتحقيق رأي القائلين بسبق الإمام في مضمار علم الكلام، واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات. وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في كماله، ومن أمثلته قوله: «الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخر، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً، كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوى غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات، ويصممه كبیرها، ويذهب عنه ما بعد عنها، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام، وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره ظاهر، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على من شاور، ولا شريك مكاثر، ولا ضد منافر، ولكن خلائق مربوبيون وعباد داخرون - أى ضارعون - لم يحل في الأشياء فيقال هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبیر ما زأر، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم وأمر مبرم..».

أما القضاء والفقه، فالمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة.. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور. وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العویصية، قضية ولا أبا حسن لها: لأنه كان في هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع، كلما وجب الاجتهاد بالرأي الصائب والقياس الصحيح..

وفي أخباره، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه.. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات المواريث، لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التي كانت تعد في ذلك الزمن الغازا تكدر في حلها العقول، فيقال إن امرأة جاءت إليه وشككت إليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد.. فقال لها: لعله ترك زوجة وابنتين وأمّا واثني عشر أخا وأنت؟.. فكان كما قال.

وسئل يوما في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوبين وابنتين. فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعًا. وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة..

وفي هذه الإجابات، دليل على الذكاء وسرعة البديهة.. فضلا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب..

وإذا قيل في قضائه إنه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه، صح أن يقال في علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر سهما في إنشاء هذا العلم من سهمه. وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكا إليه شيوخ اللحن على السنة العرب، فقال له: اكتب ما أملأ علىك، ثم أملأه أصولا منها: إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنشأ عن المسمى، والفعل ما أنشأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنشأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.. وإن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر.. وإنما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر.. يعني اسم الإشارة على قول بعض النحاة، ثم قال لأبي الأسود: إنك هذا النحو يا أبا الأسود.. فعرف العلم باسم النحو من يومها.

وهذه رواية تختلفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية، ولا سيما السريانية واليونانية.. ولكن الروايات العربية لا تنتهي بنا إلى مصدر أرجح من هذا المصدر، وغيرها من الروايات الأجنبية والفرض العلمية لا يمنع عقلاً أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربي من مذكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التي تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام، وهم هنالك غير قليل، ولا سيما السريان الذين سبقو إلى تدوين نحوهم، وفيه مشابهة كبيرة ل نحو اللغة العربية.

وليس الإمام على أول من كتب الرسائل، وألقى العظات، وأطال الخطب على المنابر في الأمة الإسلامية..

ولكنه ولاريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذي يقتدي به في الأساليب.. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لاصياغة منشئين، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير، ولكن الإمام علياً تعلم الكتابة صغيراً ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجوييد.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع، هو فيما نرى أول أساليب الإنشاء الفنى في اللغة العربية، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه، وتأتى له بسلبياته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداءة ومن تهذيب الحضارة، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية.. فديوانه الذي سمي «نهج البلاغة» أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية، واستعماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتعماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح الدلالة على أسلوبه، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالة الأسانيد التاريخية، لأن طابع «الشخصية العلوية» فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثانياً الحروف، يوحى إليك حيثما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحداً غير الإمام، ويعز عليك أن تلمع فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام..

على أننا نبالغ ما نبالغ في تمحیص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن فنون ثقافته العامة، ثم تبقى لنا بقية تسمع لنا - بل توجب علينا - أن نسأل: كيف يتسمى العلم بهذا لأى كان من الناس في مثل ذلك الزمان؟

والسؤال لابد منه، ولا نظن قارئا من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال
بباله ولم يرد على لسانه.

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك..
فالباعث عليه أننا نبالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة
بالتقافة العالمية، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين..
لكن البداوة لم تكن في الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة
التي تخطر لنا للوهلة الأولى، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم،
وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التي تتدخل الجزيرة العربية من قديم العصور.
وحسبيا من أمثلة ذلك، مثال واحد في معسکر الإمام نفسه يغنى عن الأمثلة من قبيله..
وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وهو يهودي ابن زنجية
مولود في بلاد اليمن، ومذهبة الذي اشتهر به هو مذهب الرجعة الذي يجمع فيه
بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود، وقول غيرهم بظهور الإله الذي
يتقمص جسم إنسان، وقول النصارى بظهور المسيح، وقول أهل فارس بتقدیس
الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يمني من أهل الجزيرة، إذا تخيلنا أن الجزيرة في
حضارتها أو بداولتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبين إسرائيل، وأن
الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية،
أو طريق المحاكاة الاجتماعية، أو طريق الدراسة والسماع..

وقد كانت عاصمة الإمام في الكوفة.. وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء
الحضارات المعروفة في العالم بأسره، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها
أناس كانوا ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء في سيرة عمر بن
الخطاب، ومنهم من كان ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم، وحذر بعض
هؤلاء الإمام أن يسير إلى حرب الخوارج في طالع كوكب من الكواكب المنحوسة، فقال
له: «أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء؟.. فمن صدق
بهذا فقد كذب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروره»..

* * *

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة، قائلًا: «إياكم وتعلم النجوم، إلا ما يهتدى به في بر أو بحر.. فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن.. والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار!».

وقد لبث على بن أبي طالب زهاء ثلاثة سنين منقطعاً أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة، متفرغاً أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة.. يتأمل كل ما سمع، ويراجع كل ما قرأ، ويعرف كل ما يعرف، ومن يلقاءه، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياها.. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلاً في بلاد الإسلام على تلك الأيام.. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الوعية أن تفهم ما قد فهمه الإمام، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام..

* * *

على أن هذه الفنون من الثقافة - أو جلتها - إنما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها.

فحصة الإمام من علم النحو - مثلاً - عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التي دونها النهاة بعد تقدم العلم وتکاثر الناظرين فيه..

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقاييس العصر الحاضر.. وهي في ابتدائها أصعب جداً منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائتها واستفاضة البحث فيها..

أما فن الثقافة الذي يقاس بمقاييس كل زمان، فإذا هو عظيم في جميع هذه المقاييس، قليل الفوارق بين البدايات منه وال نهايات، فذلك هو فن الكلم الجامع أو فرائد الحكمة التي قلنا إنها إنما تسجل له في ثقافة الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور.

فالكلم الجامع التي رویت للإمام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة.

وقد قال النبي عليه السلام: «علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل»

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام على في حكمته التي تقارن
بحكم أولئك الأنبياء...

فهي من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو
سليمان ابن داود.

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال، كقوله مثلا: «نفس المرء خطاه إلى أجله».. أو قوله: «من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة».. أو قوله: «المرء مخبوء تحت لسانه» أو قوله: «الحلم عشيرة».. أو قوله: «من لان عوده كثفت أغصانه» أو قوله: «كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع» إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم: صدق المعنى، أو بلاغة الأداء، أو جودة الصناعة..

وي بعض أقواله ينضح بدلائل «الشخصية» التي تلازم صاحب الفن الأصيل، فتبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه، كما قال: «صواب الرأى بالدول. يقبل بإقبالها ويذهب بذهابها» أو كما قال: «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار».. أو كما قال: «شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فإنه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظ عليه».. أو كما قال: «إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه».. أو كما قال: «لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع»..

وله عدا هذه الحكم التي تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها، وتنفذ إلى كل سامع يفطن لها كقوله: «كل معدود منقض وكل متوقع آت» أو قوله: «إذا كثرت القدرة قلت الشهوة» أو قوله: «أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه».. أو قوله: «من نصب نفسه للناس إماما، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره.. ول يكن تأدبيه بسيرته قبل تأدبيه بسانه، ومعلم نفسه ومؤدبيها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبيهم» أو قوله: «الفقيه كل الفقيه من لم يقسط الناس من رحمة الله ولم يوئسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله».. أو قوله: «قيمة كل امرئ ما يحسنه» أو قوله: «العاقل يضع الشيء مواضعه» أو قوله: الصبر صبران: «صبر على ما تكره، وصبر على ما تحب» أو قوله: «من ملك استأثر» أو قوله: «الناس أعداء ما جهلو».. أو قوله: «القرابة إلى المودة أحوج من المودة إلى القرابة»..

* * *

وله في المواقف المرتجلة كلمات هي أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة.. فلما خرج وحده لبعض المهام التي تردد فيها أنصاره، قالوا له يشيرون إلى أعدائه: «يا أمير المؤمنين نحن نكفيكم» فقال: «ما تكفونتني أنفسكم فكيف تكفونتني غيركم؟.. إن كانت الرعايا قبلى لتشكو حيف رعاتها، وإننى اليوم لأشكو حيف رعيتى، كأننى المقود وهم القادة، أو الموزوع وهم الوزعة»

ورثى محمد بن أبي بكر حين بلغه مقتله على أيدي أصحاب معاوية فقال: «إن حزننا عليه قدر سرورهم به، إلا أنهم نقصوا بغيضا ونقصنا حبيبا».

فكل نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرة الوعى وقدرة التعبير.. فهو ولاشك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأتوا الحكمة، وفصل الخطاب.

وقد أخطأ «موير» Moyer المؤرخ الإنجليزى حين قال: إن علياً حكيم كسليمان، وهو مثله حكمته لغيره.. يعني أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة، فإن «موير» أحبى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه. ولاشك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصرين بما ينصح به الناس. أما أنه ينتفع بحكمته، فالطبيب لا يقدر في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه.. فقد يكون الإخفاق من استعفاء الداء لا من صحة الدواء.

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح، قد نسب إلى قالة من الأوائل غير الإمام رضى الله عنه، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح والمنحول من كلام الإمام الذي جمعه الشريف الرضى في «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة في التعريف بعصرية الإمام.. فحسبنا أن أسلوب الإمام معروف في بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه، وإن طابع هذا الأسلوب شائع في بعض الكتاب لا تقدر فيه كلمة ظاهرة التلقيق هنا أو كلمة ظاهرة الإقحام هناك، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير. فنحن لانخطئ أن نرى في هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل علينا، وتنتقطع علينا، كالوحدة التي نراها بغير انقطاع في كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد.. وهذه الوحدة وحدتها مغنية لنا في تبادل ثقافة الإمام،

أو تذوق أسلوبه الذي لا تخطئ فيه مرة جزالة الباردية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذي لا تكلف فيه..

ولا يتم القول في ثقافة الإمام على رضى الله عنه، مالم نتممه بالقول في نصبيه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب، الذي هو مضماره الأول ومناط شهرته التي تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة..

فجملة ما يقال في هذا الصدد، أن فن الإمام العسكري هو فن البطل المغوار يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه، وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت في عضده.. ومن حيله المشهورة في توهين عزم عدوه، أنه أمر بعقر الجمل في الوعقة المعروفة باسمه، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يلتلون به ويثبتون بثبوته..

وهذا كله فن البطل المغوار الذي يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش..

ولم يرد لنا من أنباء الإمام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار..

نعم.. إنه كان يقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة ومؤخرة، وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على التخصيص..

وكان له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتأديب الجندي ومعاملتهم لسكان البلاد، ومنها قوله: «إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم من قبل الأشراف وسفاح الجبال، أو أثناء الأنهر، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردى، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فانزلوا جميعا وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا، وإذا غشياكم الليل فاجعلوا الرماح كفة - أي محيطة بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة»..

ومنها قوله: «وَلَا تَسْرُ أَوْلَى الْلَّيْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَنًا وَقَدْرَهُ مَقَامًا لَا ظَعْنَا»
ومنها قوله للولاة: «إِنِّي سَيِّرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ
بِمَا يَجُبُ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِ الأَذْنِي وَصِرْفِ الشَّذْنِي، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى ذَمِنَكُمْ مِنْ
مَعْرَةِ الْجَيْشِ إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِ لَا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَبًا إِلَى شَعْبِهِ، فَنَكِلُوا مِنْ تَنَاؤلِ
مِنْهُمْ شَيْئًا ظَلَمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ، وَكَفُوا أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ عَنْ مَضَارِتِهِمْ وَالْتَّعْرُضِ لِهِمْ...»
وهذه وما هو من قبيلها، مناهج موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه
إلى خطط التعبئة وقيادة الميدان..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج في وقعة صفين، لم تكن الواقعة
كلها إلا مناورات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة في أوقات متباعدة.. كأنها
ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد في
موقف المبارزة أو في غمار الصفوف.

* * *

وخلال ذلك كله، أن ثقافة الإمام هي ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين
الجماهير في كل مقام..

وانها هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله، يداول بين القلم والسيف،
ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه.. لأنه بالباس زاهد في الدنيا مقبل على الله،
وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله..

فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه، وهو عالم يتلاقى في الدين
والدنيا بحثه ونجواه..

١٠ فی بیته



خلاصة رأى الإمام في المرأة أنها «شر كلها.. وشر ما فيها أنه لابد منها»..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد منه.. «فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال.. الزهو، والجبن، والبخل.. فإذا كانت المرأة مزهوة لم تتمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها».....

والإمام صائر إلى رأيه هذا في المرأة من كلتا طريقيه، وهما طريق الحكيم الذي ينظر إليها على سُنَّة الحكمة القديمة، وطريق العابد الذي ينظر إليها على سُنَّة العبادة في جميع العصور.. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه، وهي فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوها.. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه، ولا غفل قط عن الوصية بها في موطن يستدعي هذه الوصية. ومن أمثلة وصاياه في هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين، حيث يقول:

«لا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إن كنا لنؤمر بالكاف عنهن وإنهن لمشرفات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر - أى الحجر - أو الهراء فيغير بها وعقبه من بعده...».

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية، كما يظهر من غير حادث واحد.. ومن ذلك صبية السبى التي استولى عليها وبنى بها ل ساعتها، وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه.. فرأى بعض أصحابه في ذلك ما شكوه إلى النبي عليه السلام من أجله، وربما كان هذا سبب تحذيره منها في الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها، فكان يقول لسرياته وجيوشه إذا شيعها: «اعزبوا عن النساء ما استطعتم» ويوصى في أمثال هذه المواطن باجتنابها..

غير أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء، فلم يعرف له هو لا امرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذي احتضن به السيدة فاطمة رضى الله عنها

كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها، وهو غير الهوى الذي تبعثه المرأة بمغريات جنسها.

كان جالسا في أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة، فرمأها القوم بأبصارهم.. فقال رضي الله عنه: «إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هياجها.. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلاً مس أهله، فإنما هي امرأة كامرأة».

وعلى الجملة، يمكن أن يقال إن آراء الإمام في المرأة هي خلاصة الحكمة القديمة كلها في شأن النساء..

فهن شر لابد منه باتفاق آراء الأقدمين، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين من أبناء بني إسرائيل وأباء الكنيسة المسيحية وأئمة الإسلام.

لأنهم كانوا جمِيعاً يمزجونها بالشهوات التي تثيرها عادةً أو غير عادةً، ويلقون عليها تبعية الشرور التي تنجم عنها بمحنته أو على الرغم منها، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغيير إلا في الأزمنة الحديثة التي نظرت في استقلال التبعات على أساس «الحرية الشخصية».. فحسبت المرأة بما تجنيه، وأوشكت أن تبالغ في تبرئتها من جنایاتها.

فمن السهو عن الحقيقة، أن تتخذ آراء الأقدمين في المرأة دليلاً على نصيبيهم من الغبطة أو السكينة في حياتهم البيتية.. لأننا خلقاء أن نحسبهم جمِيعاً من الأشقياء المعذبين في بيوتهم، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات.

وليس من اللازم في حياة الإمام خاصة، أن يستمد آراءه في المرأة من حياته البيتية.. فقد كانت تجاربه في الحياة العامة مداراً لا ينفك لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج إلى تجربة مكررة، وشاءت المقادير أن تنقضى حياة الإمام علىَّ وللمرأة يد في القضاء عليها، فكانت حياته الغالية مهراً لقطام التي قال فيها ابن أبي مياس المرادي:

كمهر قطام من فصيح وأعجم
وضرب علىَّ بالحسام المسمم
ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة
ثلاثة آلاف وعبد وقينه
فلامهر أغلى من علىَّ وإن غلا

والذى يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاوة لم يألفها الأزواج فى زمانه، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله..

عاش مع فاطمة رضى الله عنهم، لا يقرن بها زوجة أخرى.. حتى ماتت بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر.. وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لاشك فيها، فقد كان النبي عليه السلام كما جاء فى الأثر يغار لبناته غيره شديدة، وروى عنه أنه قال وهو على المنبر مرة: «إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد على بن أبي طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم.. فإنها بضعة منى يربىنى ما رابها ويؤذينى ما آذها»

وريما كان من وفاته لها غضبه لغضبها، فأحجم عن مبايعة أبي بكر إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات، وهجره كما هجرته مدة حياتها. وقد ولدت له أشهر بناته وبناته: الحسن، والحسين ومحسن، وأم كلثوم، وزينب، وماتت ولم تبلغ الثلاثين.

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منها أبناء وبنات يختلف فى عدهم المؤرخون، ويؤخذ من إحصائهم فى «الرياض النضرة» للمحب الطبرى أنه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية، بقى منهم بعده كثيرون.

وكان على ما يفهم من خلائقه، ومن سيرته وأخباره، أبا سمحا يستريح الأبناء إلى عطفه، ويجرئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينويه من الأحداث الجسام.

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها، جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له: «قد أمرتك فعصيتني، فتقتل غدا بمعصية لا ناصر لك فيها» فسألته: «وما الذى أمرتني فعصيتكم؟» قال: «أمرتك يوم أحبط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل لا تباعي حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر.. فإنهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبىت.. ثم أمرتك حين فعل هذان الرجال ما فعلـاـ أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحا.. فإن كان الفساد كان على يدى غيرك، فعصيتني فى ذلك كله!»..

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه، وجعل يقول له: «أى بنى!.. أما قولك لو خرجم من المدينة حين أحبط بعثمان فوالله لقد أحبط بنا كما أحبط به، وأما قولك لا تباعي حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر،

وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام.. وأما قولك: اجلس في بيتك فكيف لي بما قد لزمني؟.. ومن تريدى؟.. أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال: دباب دباب.. ليست هنا حتى يحل عرقواها ثم تخرج.. وإذا لم أنظر فيما لزمني من الأمر ويعنينى، فمن ينظر فيه؟.. فكف عنك أى بنى».

وهذه معاملة «أخوة» تستغرب في الأجيال الماضية التي كان للأبوبة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق، ولا ينقضها أنه لطم الحسن يوما لأنه ظن به تقصيرها في الدفاع عن عثمان.. فتلك سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها فيسائر الأحوال..

وكان رضي الله عنه، يزهيه أن يحيط به أبناءه في محافل الروع ومشاهد الزخرف.. فيخرج إليها وهم حافدون به عن يمينه وشماله، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان..

واشتهر بالعطف على صغارهم، كما اشتهر بمودة كبارهم.. فكان أحب شيء إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بني كلب يخرج بها إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه: من أخوالك؟.. فتجيب: «وه.. وه» محاكاة لعواء الكلاب..

وكان يقول: «إن للوالد على الولد حقا، وإن للولد على الوالد حقا.. فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن»..

ومن إحسان التسمية، أنه هم بتسمية ابنه حريا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته، لولا أن رسول الله سماه الحسن، وهو أحسن.. فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخيه الحسين والمحسن. وأتم حق أبنائه في إحسان أسمائهم، فاختار لهم أسماء النبي وأسلافه من الخلفاء: أبي بكر، وعمر، وعثمان.

أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه، فمعيشة الزهد والكافاف.. وأوجز ما يقال فيها إنه كان يتافق له أن يطعن لنفسه، وأن يأكل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته، وأن يلبس الرداء الذي يرعد فيه، وأن أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين.. وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا.. فكان بيته نقىض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه..

صورة مجملة

من كلمات الإمام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث يقول:
«يادنيا غري غيري.. غري غيري!».

وانها لأكثر من كلمة، وأكثر من دعاء..

إنها لسان قدر، وعنوان حياة..

فقد خلق الإمام، وفي كل خلية من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا، على ضرب من ضروب الاجتراء.

خلق شجاعا بالغا في الشجاعة، وزاهدا عظيم الزهد، ودارسا محبًا للحقيقة الدينية يتحرّأها حيث اهتدى إليها..

والشجاع جرئ على الدنيا لأنه لا يبالى الحياة..

والزاهد جرئ على الدنيا لأنه لا يبالى النعيم..

وطالب الحقيقة جرئ على الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ، كما عرف بالإقبال على الدنيا؟..

صام الناس قبله عن الدنيا، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها..

هدأت حماسة الدعوة النبوية، وثبتت الطبائع إلى مألفها الذي أشرجت عليه، وتدفقت الأموال من الأمسار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط في تاريخها

وأقبل الناس على الدنيا، بل هرولوا إلى الدنيا..

وإذا بخلية جرئ عليها زاهد فيها، يقف لهم في طريقها ويصدّهم عنها..
يصد ماذا؟..

يصد الطوفان، وهو متدفع من وراء السدود..

يصد الطبيعة الإنسانية، وهي منطلقة من عقال التقوى..

يصد ما لا سبيل إلى صده بحال..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره.. فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميته الشهداء..

وقد لزمه آية الشهادة في كل قسمة كتبت له، وكل حركة سعى إليها أو سعت إليه..
 فمن آيات الشهادة أن يساق إلى الخلافة، ولا حيلة له في اجتنابها..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها في ساعة الفصل بينها وبين الملك، وتقوم الحوائل كلها بينها وبينها قبل الأوان..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها، ولا حيلة له في تحقيق أغراضها ولا في الخروج من مآزقها..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه، ولا حيلة في تبديل أولئك الأنصار..

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا، وقد غرت حوله كل إنسان.. فهو شهيد، شهيد، شهيد..

خرج إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام..

وصورته المجملة لا تشق على مصوّر ولا على متفرّس، لأنها صورة المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله، أو صورة الشهيد..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله، ينبغي أن ينزعز عن مهنة القدر التي لا يغلبها غالب..

وقد كان له رأى عالم، وفطنة حكيم، ومشورة مدبر.. ولكننا إذا قلنا إنه أخفق في العمل لأنّه لم يغلب القدر، فذلك تكليف بما لا يطاق..

وإنما نقول إنه أخفق في العمل ونمسك، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الإخفاق..

* * *

وحق لا شك فيه أنه أخفق حيث يشرفه إخفاقه، وحيث يخفق الآخرون
لونصتهم الأقدار في مثل مكانه.

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه، وهو إلى اليوم موضع الخلاف عليها
وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال في التاريخ.

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده، ولكنه لم يطلب إليه ذلك... ولا
رأى من الحكمة أن يطلب إليه. قال ابن عباس ورسول الله في مرض الوفاة:
«اذهب إلى رسول الله، فسله فيمن يكون هذا الأمر. فإن كان فيينا علمنا ذلك، وإن
كان في غيرنا أمر به فأوصي بنا؟.. قال: «والله لئن سألناها رسول الله
فمنعنها لا يعطينها الناس أبدا.. والله لا أسألها رسول الله أبدا»..

آمن الإمام بحكمة الرسول إيمان محبة وتصديق، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى
كان قد آمن بها إيمان تعليم وتطبيق. فلما سأله: «أنبأين الحسن؟» قال: «لأمركم
ولا أنهاكم» فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه، لأنهم رأوا
في موقفه منها مثل ما رأوه في موقف الحسن ابنه، على حكم سواء..

* * *

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام..

لقد ولد كما علمنا في الكعبة، وضرب كما علمنا في المسجد.. فآية بداية
ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية!..

* * *

فهرس الكتاب

٣	تقديم
٧	١- صفاته
١٩	٢- مفتاح شخصيته
٢٣	٣- إسلامه
٢٩	٤- عصر الإمام
٣٩	٥- البيعة
٧١	٦- سياسته
٩٧	٧- حكومته
١٠٥	٨- النبي والإمام والصحابة
١١٣	٩- ثقافته
١٢٧	١٠- في بيته
١٣١	صورة مجملة